288

كتاب مش ساخر

نامت عليك حيطة

محمد فتحي

نهى محمود

Ahmed Mady

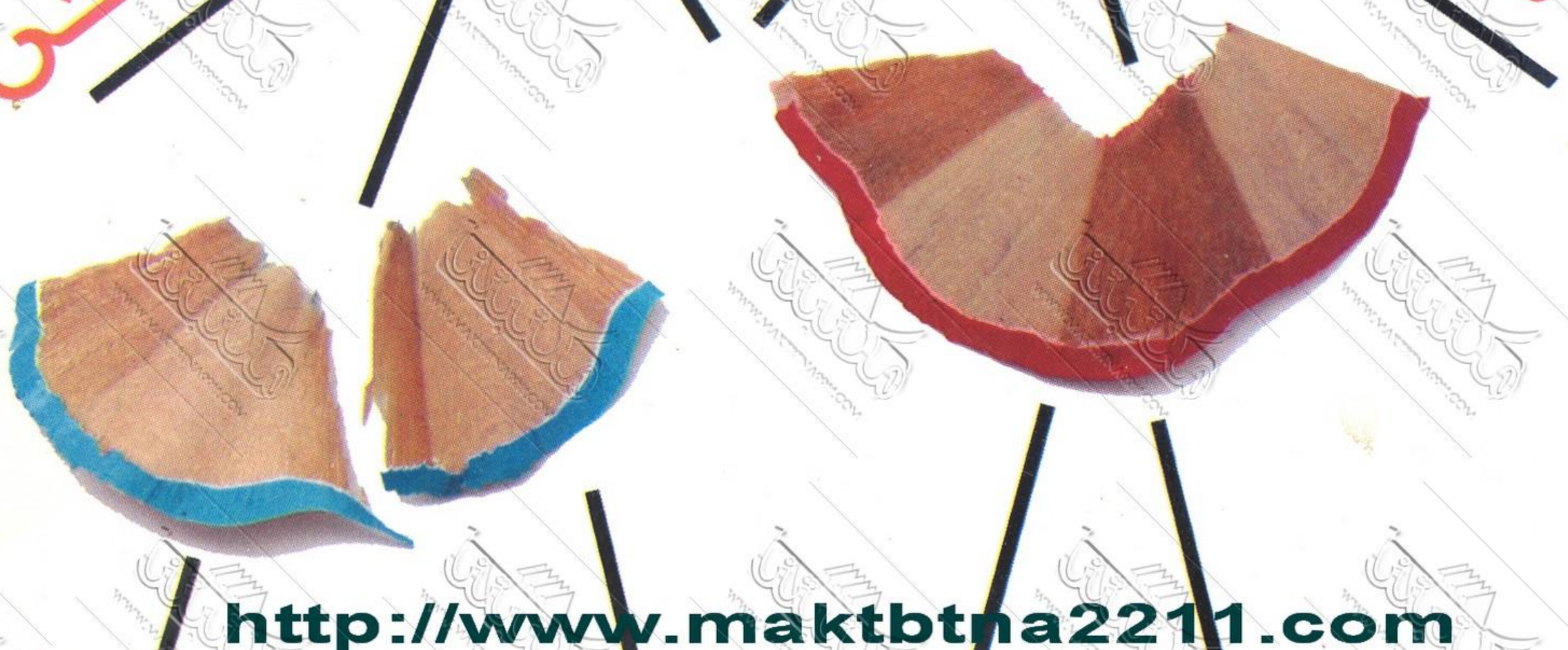

http://www.maktbtna2211.com

لا شيء سيجعلك تشتري هذا الكتاب إلا فضولك لمعرفة قصة حياتك التي لم تكتبها بل كتبها عنك آخرون.

ولد وبنت يحكيان عن الطفولة من الولادة وحتى مخاوف الموت. من شقاوة ثانوي، وحتى حب العالم، من إعلانات طارق نور إلى الفلوس التي تربينا على كرهها طالما كنا فقراء، وعلى حبها إذا أصبحت معنا.

لا نفاد الطبعتين السابقتين ولا إشادة الكثيرين به سيجعلانك تشتري هذا الكتاب.. ولا حتى اسمه اللافت للنظر والذي يمكنك اعتبار أنه دعاء موجه لمن لن يفكر في شراء هذا الكتاب، ولذلك أنصحكم أن تشتروه لا لشيء إلا لأن هذه هي إرادتكم الحرة. وهذا هو كتابكم الذي لم تكتبوه.

مع ملاحظة انه لا كتاب ساخر ولا بتاع ولا شاي بالنعناع.

والله الموفق.

Sun.
4/11/2012
Riyadh

تصميم الغلاف أحمد مراد

الكاتب / محيى الدين مرعى

كتابنا القادم

المشهد الأخير في حياة الطغاه

الجزء الأول

الناشر

١٥

المكتبة القومية الحديثة
طبع نشر توزيع
تأسست سنة ١٩٦٨
طنطا - ٦ شارع القاضي
المكتبة القومية الحديثة
مصطفى إسماعيل
ت: ٠٦٩٠٣٣٤٩٠٦٠ / ٠١٠٠٧٤٧٠٠٠٦٠ / ٠١٢٢٥٩٨٩٤٧ / ٠١١٦٩٢٧٣٢٠
E-Mail:Elkawmia_68@hotmail.com

محمد فتحي

نامت عليك حيطه

نهى محمود

المكتبة القومية الحديثة

محمد فتحي - نهى محمود

نامت على حبطه

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

حكاية حيطة !!

قبل حوالي عامين طلب صديقي القديم (10 سنوات صداقة تقريباً) محمد كمال حسن المحامي (هكذا ألقبه) أن يراني مع الصديقة المبدعة نهى محمود.أماكن لقاء محمد كمال حسن المحامي بالناس تتحدد وفق أمور معقدة، وحسابات عجيبة بعض الشئ لها علاقة بسكنه في مدينة 6 أكتوبر التي يتعامل معها باعتبارها أحد كواكب المجموعة الشمسية البعيدة عن كوكب القاهرة، ولم تكن وقتها قد تحولت لمحافظة بعد، ولما كان محمد كمال حسن المحامي هو الذي طلب اللقاء فقد كان الأمر جد خطير(على الأقل بالنسبة لي)، لاسيما وأنه أخبرنا أن صديقنا الشاعر مصطفى الحسيني شريك محمد في رحلته وفي دار النشر التي يمتلكانها (مزيد) سيكون متواجداً، وهو ما يعني أن هناك مجلس حرب سينعقد .

تقابلنا في سوق الحميدية في باب اللوق وبعد شرب العناب الذي

كنت سأحاسب عليه كالمعتاد ليس تقليلاً من شأن محمد كمال، ولا جدعنة مني لا سمح الله بها مع كمال، بل احتراماً مني لكيان العناب المحترم في سوق الحميدية قال محمد أن لديه فكرة كتاب يحلم أن يكتبها كاتب وكاتبة، ولا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا اختارني أنا ونهى محمود تحديداً لنكتب هذا الكتاب، لكن الفكرة التي طرحها محمد كمال حسن المحامي أو كيمو في روايات أخرى كانت مغرية وبراقة، فقد اقترح أن نكتب حول ذكرياتنا كإثنين من جيل الثمانينات، وجلسنا نطور الفكرة حتى وصلت لمرحلة أن نكتب سيرة شبه ذاتية هي الأولى (أو هكذا نعتقد) لاثنين لم يتخطيا عامهما الثلاثين بعد، لا هي سيرة ذاتية دقيقة فيها من نشر الغسيل اياه ولا ادعاءات الحكمة بأثر رجعي على اعتبار اننا كنا عيال فلتة، ولا الفضائح التي يمكنك أن تراها في السيرة الذاتية للكبار، ولا هي محض خيال صرف.

سيرة شبه ذاتية تروي ذكرياتنا التي اكتشفنا أنها – تقريباً – واحدة، وأن القارئ – اياً كان – له علاقة بها لأنه عاش جزءاً منها وأحسه وشعر به، بل وكتبه في كشكول صغير ملقى في ركن مظلم في ذاكرته سيفرح حتماً إذا أضاء له أحدهم هذا الجزء، وهو نفس الفرح

الذي شعرنا به ونحن نكتب هذا الكتاب.

ولأن نهى أديبة أكثر منها صحفية فقد اقترحت أن يكون عنوان الكتاب جدران مخاوف، وهو الاسم الجميل الذي كان كفيلاً بأن يقرأ كتابنا قراء يقعوا في دائرة نصف قطرها قهوة سوق الحميدية نفسها وحدودها لا تخرج عن باب القهوة في أحسن الأحوال فقد اقتنعت بعد قليل بإمكانية تغيير الاسم ليتناسب فعلاً مع قراء المرحلة، ومع روح الكتاب

وهكذا ولد عنوان الكتاب ..(نامت عليك حيطة).

أما الدعوة فهي ليست للقارئ ويمكن اعتبارها رسالة للمنفسنين والمعقدين وأعداء الفرحة، وأما العبارة نفسها فطالما سمعناها من أمهاتنا بشكل أو بآخر وهن يشتكين من شقاوتنا التي طالما تميزنا بها، وأما الحيطة نفسها فهي حيطة الذكريات التي كتبنا عليها كثيراً، وتركنا بصمات روحنا على كلامنا المكتوب عليها فلا محاها الزمن ولا كففنا عن الكتابة عليها كلما ضاقت بنا الدنيا أو قراءة ما كتبناه فيها كلما شعرنا باحتياجنا الشديد إلى فرحة مصفاه حتى أخر ضحكة وأحلى شعور بالسعادة

وبعد نفاذ طبعتين، ولاعتبارات تتعلق بسكن محمد ومصطفى في

كوكب 6 اكتوبر قررنا بأسلوب متحضر استهلك أطناناً من الشاش والميكروكروم أن نطرح الكتاب بشكل جديد وبتوزيع جديد وغلاف جديد ومقدمة جديدة لنقدم لقارئ الطبعة الثالثة شكلاً مختلفاً وجميلاً، مع توجيه الشكر لمحمد كمال حسن المحامي والناشر والصديق، ولمصطفى الحسيني الشاعر والصديق الجميل ، ولدار مزيد كلها (اللي هما الاتنين اللي فاتوا) على جهدهم ودعمهم للكتاب، كما نشكر محمد كمال حسن مرة أخرى على فكرته التي نخجل من أن نقول ونردد ونكرر أنها فكرته في جميع طبعات هذا الكتاب ، على الأقل حتى يحاسب هو على مشاريب العناب في سوق الحميدية المرات القادمة.

والآن.. سمي.. وخش برجلك اليمين

☺

الميلاد.. أشياء تستحق أن تروى

تقول لي أمي دائمًا إنها ولدتني (بالقسط)!!

كان ذلك في عام 1980 حيث كان أبي عسكريًا في القوات المسلحة، وأمي تحاول نسيان آلامها بعد فقدنها لمولودتها الأولى التي كانوا ينوون أن يسمونها (فاطمة).

حكت لي أمي فيما بعد كيف أن المرضة بدلاً من أن تجذب فاطمة من شعرها (وكان وضعها حرجًا) جذبتها من حنجرتها..

خنقتها.

لم يكن الأمر مشابهًا معي ربما لأن رقبتي كانت (كبس)!!، ويقال إن التجربة كان من الممكن أن تتكرر لولا أنني أصررت على الخروج (بالشقلوب)، ويقال أيضًا إنني (رفست) المرضة قبل أن أصرخ حتى صرختي الأولى؛ ولذلك كانت الصفعة الأولى على مؤخرتي صفعة

انتقامية قررت بعدها مثل أي طفل يحترم نفسه –ومؤخرته– أن أبكي.

تقول لي أمي دائمًا إنها ولدتني (بالقسط)!!

كان هناك إصرار غريب على أن تلدني أمي في مستشفى محترمة، اسمها مستشفى شجرة الدر بالزمالك، ولّما كان أبي غير قادر على تكلفتها الباهظة، ولّما كان يريد لي –مثل كل أب طبيعي– أن أحيى وألا يحدث معي مثل طفلته السابقة التي كفنها وأعطاها لحانوتي لتخرج مع ميت آخر (لعلها ترحمه)؛ فقد وافق على اقتراح خالتي وزوجها الفاضل بأن أولد في مستشفى بالزمالك –وهو الأهلاوي المتعصب– بشرط أن يسدد ثمن إقامة والدتي وإقامة فخامة سعادة جنابي بعد ولادتي بالتقسيط المريح. وبعد أن كبرت كان الحاج سيد أبو ياسر هو الوحيد الذي أناديه (بابا سيد)، ولم يكن هذا يضايق والدي الحقيقي (بابا فتحي) والذي ظل ممتنًا للرجل.

تقول لي أمي دائمًا إنها ولدتني (بالقسط).

أنتم تعرفون حتمًا العلاقة الملتبسة دائمًا بين أهل الأب وأهل الأم والتي لا بد لها من شجار وزعل وتزمت وتلكيك بين الطرفين في أمور تبدأ هايفة ولكنها لا تبقى كذلك.

هكذا كانت علاقة أمي بأهل أبي بعد أن كانوا قد نعتوها بأن

(بطنهـا زفـرة) وأنهـا سـبب وفـاة شـقيقتي الأولى، وعنـدما ولدتني أمي وكنت —ولا زلت والحمد لله— ذكرًا، هو أول حفيد في عائلة أبي كان لابد لأمـي مـن احتياطـات أمنيـة، وهكـذا تجـدها تـضع علـى وجهي (البيشة) حتى لا يراني أحد منهم، وكي لا يزيد مدة النظـر إلى وجهي (الملظلظ) فيحسدني على أساس أن (العين وحـشة) وأن (الحـسد مذكور في القرآن)، كما أنها كانت تقضي معظـم الوقـت عنـد خـالتي في شارع الجمهوريـة، مصطحبة إياي في عربـة أطفال صغيرة في طريق ثابتة لا تغيرها من الشرابية إلى شارع الجمهورية. آه.. نسيت أن أقـول لكـم إنني ولدت في الزمالك، لكني في الأساس من الـشرابية، وهنـاك قـضيت أكثر من عشرين عامًا من عمري.

تقول لي أمي دائمًا إنها ولدتني بالقسط.

عدد الأقساط تحديدًا لا أتذكره، وأحيانًا يؤكـد لـي أبـي أن هـذا الموضـوع أشـبه بالأسـاطير المؤسـسة لدولـة إسـرائيل ولا مكـان لهـا في الحقيقة لأنه دفع حقي (تالت ومتلت)، وهـو مـا تنفيـه أمـي في أقـوال أخرى وما لا تتحدث فيه أبدًا خالتي (سوسو).

تقول لي أمي دائمًا إنها ولدتني بالقسط.

في الشهر الثالث من عمـري، بينمـا كانـت أمـي تنـشر الغـسيل

تاركة إياي على الكنبة غافلتها ووقعت على رأسي.

تقول أمي إنني ظللت أبكي في البداية، ثم فجأة سكت وتنحت في الفراغ. ظنت أمي أن مكروهًا قد أصابني، وأنني قد أسلم الروح فجأة (ربما كانت تخشى على باقي الأقساط)، وفي المساء أخفت الخبر عن والدي الذي يقسم بالله أنه شعر بألم في نفس الوقت الذي وقعت فيه وفي نفس المكان.. في رأسه.

ظلت هذه الحادثة هي الكابوس المرعب الذي يؤرق منام أمي كل ليلة، واعتبرت هي أن نجاتي بفضل الله الذي رأف بحالها، وكادت تنسى مشاكلي وأنا أكبر دون شقاوة تذكر مثل أقراني في نفس السن، لكن حين بلغت الرابعة من عمري فاجأتها بشربي لزجاجة نشادر تركتها بجانبي على أساس أنني مؤدب ولن أفتحها أو على أساس أنها تختبر نفسي الأمارة بالسوء، لكن نفسي غلبتني فانتزعت الغطاء بأسناني وشربت النشادر لأفاجأ بغصة في حلقي سرعان ما تحولت إلى نار في حنجرتي ودهشة لا تنتهي من عواقب الأمر التي لم تكن أبدًا في حسباني، والغريب أن أمي كانت (تنشر الغسيل)، وهو ما يؤكد أن الغسيل قد يلعب دوراً مؤثراً في حياتك وإن فاتني أن أسألها عن نوع الغسيل. اكتشفت أمي أمر النشادر بالصدفة وبمنتهى سرعة البديهة

حين ذهبت لها ممسكًا بزجاجة النشادر ومشيراً إلى حلقي وأنا لا أستطيع التحدث لتسألني: مالك؟ وأرد: أغغ آآآدر..، وتعود لتكرر السؤال مرتين أو ثلاثة وأنا مصر على موقفي من الـ(أغغغغ) والـ(آآآآدر)، قبل أن أكف عن استعباطي وأقول: شربت النشادر.

تختطفني أمي بسرعة وتجري إلى (الصحة) المواجهة لمنزلنا، والتي لا زلنا نسميها (مستوصف الشرابية) رغم أنها كبرت وصارت (مركزًا طبيًا).

يستقبلني أحد الأطباء الذين فقدوا ابتساماتهم في ظروف غامضة، وأفرزت غدة التناحة لديهم شعورًا دائمًا باللا مبالاة وعدم الاكتراث وهو يسأل أمي: وانتي كنتي فين.. الحاجات دي لازم يتعملها محضر في القسم.

كانت أمي تقول له: مش مهم بس الحقه، لكنه كان سمجًا وهو يقول لها: مش تهتموا بعيالكم. وكان أبي لا يزال (في الشغل) وكنت أشعر أنه لو كان موجودًا لما سمح له –أو لها– بما حدث؛ فقد كان أبي هو بطلي المفضل في تلك الفترة (ربما لأنني لم أكن أراه كثيرًا وكان كل ما يفعله معي خيرًا مثل الأبطال الخيرين في القصص الأسطورية).

بعد كثير من السماجة المخفوقة بثقل الظل والبستفة والتهزيق

لأمي أدركت أنها ستكرهني حتمًا بسبب ذلك الموقف، لكنها –على العكس تمامًا– كانت مصرة على الاطمئنان على صحتي أكثر من اهتمامها بالمحضر المنتظر الذي قد يتكفل بحبسها.

أخيرًا نصحنا الطبيب بالبيض المخفوق الذي يجب أن أشرب منه كميات كبيرة قبل أن (أستفرغ) أو يتم عمل غسيل معدة لي (لا أتذكر تحديدًا)، لكن الأمر انتهى على خير وكان مقترنًا بمجيء والدي إلى المستوصف بعد أن سمع عن الحادثة من الجيران.

فيما أعتقد أن موضوع المحضر تم (لمه) عن طريق خمسة جنيهات ورقية مطبقة في عناية دسها أبي في يد الطبيب الوقح، ولا أتذكر أن أبي عاقب أمي في هذا اليوم بأكثر من (مش تبقي تحاسبي.. نعمل ايه لو ما كانش ربنا ستر)، ولم تكن أمي ترد سوى بالحمد لله.

كان هذا آخر موقف تكتفي فيه أمي بالسكوت لأنها –ودون أدنى معرفة بالأخ نابليون بونابرت– قررت اتباع مبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع بعد ذلك، كما أنني كنت رحيمًا معها وساعدتها على ذلك، فلا أنا وقعت ثانية من على الكنبة ولا كررت شرب النشادر. لكن الأمر لا يمنع أن تردد أمي –وإلى الآن– أنها ولدتني بالقسط.

فاكر طبعًا !!

(شكرًا لزوجتي الحبيبة م/ إلهام جميل على تذكيرها لي كل ما كدت أنساه)

فاكر طبعًا: إعلان نايتي الذي كانوا يختارون له وقتًا مميزًا بعد برنامج (سينما الأطفال) الذي كانت تقدمه ماما (عفاف الهلاوي) قبل أن ترتدي الحجاب وتعتزل، وكان الإعلان عبارة عن أطفال في أوركسترا يغنون (نايتي حبيبي.. نايتي حياتي.. آكله أنا ف كل أوقاتي.. نايتي.. نايتي)، وهو الإعلان الذي يجعلك تفكر في الدماغ الغريبة التي فكرت في أن تربط مشاعر الطفل (نايتي حبيبي) وحياته بأكملها (نايتي حياتي) بقطعة كيك صغيرة كانت ببريزة قبل أن تصبح بربع جنيه قبل أن يخترعوا منها السوبر المليء بطعم المربى الذي لم ينجح نجاح العادي

فاكر طبعًا: (كاراتيه) اللي هو (البوزو) الذي كنت تأكله وتلحس الكيس لأن الحبة المفتفتين في نهايته يحملون أحلى طعم وأظبط ملح.

فاكر طبعًا: اللبان السحري بتاع (دوووووق دوووووق دوق أحلى هدية.. السحري لبان مية المية.. دوق دوق.. اديني لبانة من السحري،

واشمعنى السحري مُصر عليه، جرب وهتعرف وحدك ليه).

فـاكر طبعًـا: إعلانـات اللبـان (عـاااوز لبـاااان أنـا عـاييييزه الآاااان.. رامبا ومزيكا وبوسي كات).

فـاكر طبعًـا: مـصاصة لومبـو (لومبـووووو).. لومبـو مـصاصة لومبـووووو.. لذيـذة لـذاذة.. لومبـووووو.. بتمزمـز مـزازة.. لومبـو.. لومبووه...هووووووه.

فاكر طبعًـا لبـان هـارتي: (خـالتي ومـامتي وطـانطي.. حريفـة لبان.. قلتلهم على هارتي.. قالولي يا سلاااام.. قاالووو ليييييي).

فاكر طبعًـا: بم بم.. بيقـدم جـوايز.. بيقـدم جـواايز.. بيقـدم جواايز.

فاكر طبعًا: الشمعدان اللي زي ما بتحبه بيحبك كمان وكمان.

فاكر طبعًا: بستك بستك بستك نااو.. شيكولاتة جيرسي واكلة الجااو.. شيكولاتة ورقها مفضض.. والحشوة جوه بجوووووز الهند.

فاكر طبعًا: جيلي كولا.. جيلييي كولا.. أكلت منهـا حـسيت كأنييي.. حتة منها وهي حتة منييي (كانت ياسمين عبد العزيز هي بطلة الإعلان.. هي بعينها بديلين حصانها).

فاكر طبعًا: يا قاسي يا راجووووون.

فاكر طبعًا: فليت الأصلي.. يقتل ويتوغل وينتشر.. ويستمر ويستمر ويستمر ويستمر.....

فاكر طبعًا: انسف حمامك القديم.

فاكر طبعًا: الشرق للتأمين يا أبهه.. إيه العظمة دي كلهاااا

فاكر طبعًا: اجري بسرعة يا واد يا حسين.. تقب وتغطس في دقيقتين.. تشوفلنا ريري بيتباع فين.. هاتلنا منه باكو واتنين.. الصلاة ع الزين الصلاة ع الزين.

فاكر طبعًا: محمووووود.. إيه ده يا محمووووود.. دي موبيليا كاربت سيتي يا فاطيما.

فاكر طبعًا: تيم.. قاهر العطش.

فاكر طبعًا: شاني.. علشانك وعلشاني.

فاكر طبعًا: إيزالو جالووووو.. ريحله بالووووو.. رجعله كل النوم بتاع زمان (قبل ما تصرخ الناموسة) إيزالوووووووو مع الشعار الشهير (حطينا القرص.. ونسينا القرص).

فاكر طبعًا: محلول معالجة الجفاف بتاع الست كريمة.

فاكر طبعًا: الراجل مش بس بكلمته.. الراجل برعايته لبيته وأسرته.

فاكر طبعًا: المصري هيفضل مصري.. النيل رواه والخير جواه.

فاكر طبعًا: مشروع الضاكتووووور.. مشروع الضاكتور.

فاكر طبعًا: طول ما ندي ضهرنا للترعة.. عُمر البلهارسيا ف جتتنا ما ترعى.

فاكر طبعًا: يا ام طاقية.. طاقية حمرا.. للهانم البيضا والهانم السمرا.. الأكل عنها.. ما يستغناش.. عيني عليها.. ما بنزلهاش.. يا ام طاقية..طاقية حمراااااااا.

فاكر طبعًا: سمنك في الأكل كتير (لأ) ولا قليل (برضو لأ)..استعملي سمن النخلتين.. جوزك يرجع في أكلتين.

فاكر طبعًا: رايحة فين ياااا فاااااطمة.. رايحة اجيب أومو.. جاية منين يا فاااطمة.. كنت بجيب الأومو.

فاكر طبعًا: ما عندك جهاز العروسين.. من عند عبد الرحيم عمرو.. حاجهز واحتكم الأمر.. من عبد الرحيم عمرو يا جماعة وهاااااتجوز.. هاتجووووز.

فاكر طبعًا: بون بون سيما.

فاكر طبعًا: سر شويبس.

فاكر طبعًا: أسباجيتي.. ماكارونا روووووما..روما روما روما اسباجيتي. روووووما روووووما ماكاروووونااااا.. روووما روووما ماكاروووووونا !!!

فاكر طبعًا: ما تقوليش يا ألف نهار أبيض على طعم التاتاتاتاتاتايم.. هاف تايم. لونها أزرق.. تفتحها.. تلاقي اتنين.. انت واحدة.. وانا واحدة.. شيكولاتة.. كراملة.. جواها.. بسكوي.. إيه بسكوي.. أنا قصدي.. بسكوتة.. تاتاتتاتا تايم.. هاف تايم!!!!!

فاكر طبعًا: كوفرتينا في الخطوبة (موافقين) تبقى الجوازة مطلوبة.. كوفرتينا في الفرح (موافقين) تملى الجو مرح. كوفرتينا في الصباحية (موافقين) تبقى جوازة هنية.. هيهيهيهيهيهيييي.

فاكر طبعًا: تنويهات (أين تذهب هذا المساااء) و(أضف إلى مكتبتك هذا الكتاب الجديد) وموسيقى النشرة المميزة التي وضع لحنها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب.

فاكر طبعًا: سينما الأطفال سينما.. سينما الأطفال.. سينما.

فيها الحقيقة وفيها الخيااال.. سينما الأطفاال.. سينما الأطفاااال.

فاكر طبعًا: بقلظ وماما نجوى.

فاكر طبعًا: بابا ماجد وبابا شارو وعمو حسن اللي في الراديو بتاع (فانتاستيكا فان فان فانتستيكاااا)

فاكر طبعًا: بوجي وطمطم في رمضان.. آدي القصة وادي العنوان.. برنامج صبياني بناتي، وبرضو رجالي وستاتي والفوانيس ومسحراتي، وياه طبلة بتقول طمطم..طم طا طم طم!!

فاكر طبعًا: فلفل يا صاحبي انت فين.. يا أعز صاحب رحت فيبيين، وكذلك محطة فلافيلو بتاعة: إرسالنا يا جمااااعة.. ساعة ونص الا ساعة). ولا ننسى في هذا المقام عم شكشك (هات العصاية يا ولد)

فاكر طبعًا: دي عروستي عروستي عروستي.. طول عمرها لعبة ع الشاطر دايمًا سهلة.. سهلة ماهيش صعبة.. نلعبها سوا مع بعضينا، والشاطر راح يكسب فينا.. دي عروستي عروستي عروستي.

فاكر طبعًا: كوكي كاك كوكي كاك كوكي كاك كاك كاك.

فاكر طبعًا: كاميليا العربي وصفاء قطب وكاميليا حسين وماما سامية شرابي.

فـاكر طبعًـا: كـارتون (مـخ مـخ ومـشمش.. ثنـائي مدهش).. وأبطاله رأفت فهيم وبدر الدين جمجوم.. تخيلوا!!!

فاكر طبعًا: كارتون (آلـة الزمـاااان).. الـتي كـان بطلـها فـوري (محيي اسماعيل) بينما قام بالأداء الصوتي للكلب (السيد عزمي).

فـاكر طبعًـا: لقـد حـاااان الوقـت.. قـد بـدا النهـاااار.. تهيـأ. تحضر..لإطلاق النااااار..

مازنجر..مازنجر..مازنجاااار..زيييييي!!

فاكر طبعًا: كعبول كعبـول.. الكلـب الكـسول.. يـدفع عبقرينـو المخترع المخبول.. والقط المشاكس والقط المشاكس.. من يهوى الدسائس.. يتحدى الأمور!!!! (هكذا حفظتها).

فاكر طبعًا: أهلاً.. أهلاً.. ومرحبًا بكم.. وتحية منا لكم (التتر المميز لكارتون أبطاله من الكلاب كان ينتهي دائمًا بعبارة) لن نتنـازل حتى ولو...حضر زعيم البري بري ناووووو.

فاكر طبعًا: الكابتن ماجـد.. نجـم الملعـب.. نجـم رائـع.. نجـم حساس ومهذب!! وفاكر أيضًا: كابتن مااااااجـد.. كـابتن مااااجـد.. عاد إليكم من جديد.

فـاكر طبعًـا: يـا ولاد يـا ولاااد.. تـووووت تـووووت.. تعـالوا تعالوا.. توت توت تـوت.. علـشان نـسمع أبلـة فـضيلة.. راح تحكيلنـا حكاية جميلة.. أبلاااا.. أبلة فضيلة.. واك واك.. واك واك واااك واااك.

فاكر طبعًا: ألف ليلة وليلة وكاريمة وفاطيمة وحليمـة، وريمـة اللئيمة ومشكاح نطاح يهوى الصبايا الملاح.

فاكر طبعًا: الأشكيف المخيف.

فاكر طبعًا: عالم ورق ورق ورق وفوازير الخاطبة لنيللي ومن بعدها فوازي نادين ووائل نور التي ألف موسيقاها عمر خيرت (شلبية جـارتي.. عاملة.. جلابية باااارتي كاملة.. الكل معزوم فيها من الأسد للنملة)

فاكر طبعًا: فوازير المناسبات ليحيى الفخراني مع الرائعة هالة فؤاد والجميلة صابرين.. رحم الله الجميع.

فاكر طبعًا: فوازير عمو فؤاد.. عمو فؤاد.

فاكر طبعًا: فوازير (جدو عبده، زارع أرضه)

فاكر طبعًا: أنا أنا أنـا أبريـق الـشاااااي.. إيـدي كـده.. بـوزي كده.. أصب الشاااااي.. وارجع كده..واعرف برضو يـا كتاكيـت أحكـي

حواديت.

فاكر طبعًا: أنا أنا أنا.. إنا إنا إنا.. والشمس البرتقاني عليها ليا سنة.

فاكر طبعًا: يا اصحابي وصاحباتي هنا ومحلك سر.. بصو وشوفو حاجاتي.. إنما إيه في السرررررررر.

فاكر طبعًا: حبيبة بابا.. رشا.. أمورة بابا.. رشا.

فاكر طبعًا: حلللوة يا زوبة. طعمة يا زوبة. اللي شافوكي قالوا أروبة. أد البلية. تلف الدنيا.. اكسبريس مجري ولهلوبة..حللللللوة يا زوبة.

فاكر طبعًا: أجمل من في الحفلة ميييييين.. دبدووووبة التخييينة.. اللي لابسة فستان وييبي.. فستان وجيبوووونة..نطي نطة يا دبدوبة..هه..هه..هه..هه.. ده انتي تقلك تقل طوبة..هه هه هه هه، وكمان نطة..، ونطة كمان..، وعشان خاطري نطي يا حلوة 7 نطاااااط

فاكر طبعًا: إشارة المروور بتقولنا انتباه.. اتجمعوا طابووووور عند عبور المشاة.

فاكر طبعًا: كل بلاد الدنيا جميلة لكن اجمل من بلدي لا.. لا لا

لا لا لا لا لا لاااا.

فاكر طبعًا: علشان انت هادي.. أنا هاخدك للنادي.. ننزل حمام السباحة نعوم زي السفينة.. وهنركب مراجيييييح.. نعلى ف قلب الرييييح..

فاكر طبعًا: كان نفسي من صغري.. أكبر واكون بحار.. الحلم حققته.. لأني صدقته.. وكتبني في ورقته.. قبطان من الشطار.. يا طيور النورس.. ياللي مقابلني.. غنوا سوا كورس، واهتفوا ورا مني

فاكر طبعًا: وردي وردي وردي وردي وردي.. تا را را رااااا.. اديني عقد وردي.. لا لا لا لا لاااا.. يااااااااااا.. يا بلادي.. طش..يا بلادي.. طش.. يا بلاااااادي.

فاكر طبعًا: جدو علي يوم الجمعة.. بيروح على مزرعته الخضرا.. عنده قطة اسمها شطة ولدت قطة وقطة وقطة.

فاكر طبعًا: بولا بولا بالومبيلا.

فاكر طبعًا: كوكو واوا كوكو واوا كوكوكوكو واااا.

فاكر طبعًا: هم النم يا روحي ياللا جايبالك مم.. كل واكبرلي يا روحي ياللا هم النم.

فاكر طبعًا: مصر يا أول نور في الدنيا شق ضلام الليل، والتي حولناها نحن بقدرة قادر إلى (بيتنا يا أول بيت في الدنيا دخله حرامي بالليل)!!

فاكر طبعًا: ألف ليلة وليلة.. قصة كل ليلة. لنجلاء فتحي وحسين فهمي.

فاكر طبعًا: رأفت الهجان وجمعة الشوان وليالي الحلمية وقهوة المواردي.

فاكر طبعًا: أنا البرادعي يا رشدي!!

فاكر طبعًا: الوسية (مين اللي قال الدنيا دي وسية.. فيها عبيد مناكيد وفيها السيد.. سوانا رب الناس سواسية.. لا حد فينا يزيد ولا يخس ايد) وأعشق المقطع العبقري (عيش يا ابن آدم بكر.. زي الشجر.. موت وانت واقف زيه ف مطرحك، ولا تنحني لمخلوق بشر أو حجر.. وشب فوق مهما الزمان جرحك).

فاكر طبعًا: المال والبنون وسلامة فراويلة وعباس الضو ومصر اللي بتقول لأاااااا.

فاكر طبعًا: محمد صبحي في رحلة المليون (آني سمبل شحاتة

مرزوق م السنيطة مركز أجا دقهلية، وباعتني خالي صالح) وسمبل بعد المليون (مش قلتلكم هغرقكم) ويوميات ونيس (واااااااااو) ومسرحية الجوكر (ربنا خد مني كل حاجة وادانـي الصحة) ووجهة نظر (كانت معايا في الشنطة).

فاكر طبعًا: نجمة مصر الأولى (نبيلة عبيد)، ونجمة الجماهير (نادية الجندي)، وقطة السينما المصرية (ليلى علوي) وصاروخ النكتة (حمادة سلطان).

فاكر طبعًا: بيبو (محمود الخطيب) والمجري (مصطفى عبده) ومارادونا النيل (طاهر ابو زيد) وملك النص (فاروق جعفر) و(حسن شحاتة) يا معلم خلي الشبكة تتكلم.

فاكر طبعًا: كاس العالم 90 وداخل مجدي عبد الغني وجووووووون.. عدالة السماء نزلت على استاد باليرمو.

فاكر طبعًا: صلينا الفجر فين.. صلينا في الحسين.

فاكر طبعًا: عمرو دياب وميال وما بلاش نتكلم في الماضي وما تخافيش أنا مش ناسيكي وغنائه في افتتاح الدورة الأفريقية

فاكر طبعًا: عمر فتحي (على إيدك.. اتعلمنا. على إيييييدك والله

فهمنا) و(ابسط يا عم ما تشيلش هم أهي ماشية معاك.. آخر حلاوة. بس انت ابقى افتكرنا ما تحبش حد غيرنا نصبح نلاقيك هاجرنا واتعلمت الشقاوة.. أهي ماشية معاك.. آخر حلاوة)!!

فاكر طبعًا: عماد عبد الحليم (أنا مهما خدتني المدن.. وخدتني ناس المدن.. دايمًا صورتك في قلبي دليلي في المدن).

فاكر طبعًا: لطيفة وبداية ظهورها (أرجوك إوعى تغير.. وانا حواليا كتير) والتي حورتها الخبيثات إلى (أرجوك إوعى تغير.. وانا حواليا حمييير)

فاكر طبعًا: قال جاني بعد يومين.. يشكيني بدمع العين لسميرة سعيد، وحرمت احبك.. أحبك ما تحبنيش لوردة، ومن غير ليه -آخر ما غنى عبد الوهاب-.

فاكر طبعًا: حوادث الإرهاب واغتيال رفعت المحجوب واغتصاب فتاة العتبة ومصرع الطفلة شيماء ومقتل فرج فودة.

فاكر طبعًا: لولاااااكي.. لولا لولا لولا، وفي الركن البعيد الهادي وف نفس المكان في النادي، ودي دييييه.. ديديي وا، وكتاب حياتي يا عين.. ماشفت زيه كتاب..الفرح فيه سطرين.. والباقي كله عذاب، والمطربة الإسرائيلية (سعيدة سلطانة) اللي غنت (خرمانة)، وكامننا.

فاكر طبعًا: كوز المحبة اتخرم اديله بنطة لحام، وكداب يا خيشة كداب أوي.. ده انا كنت فاكرك فهلوي، واحمد حلمي اتجوز عايدة كتب الكتاب الشيخ رمضان.

فاكر طبعًا: رمضان البرنس واسماعيلية.. اسماعيلية.. بتحيي.. رمضان.. البرنس.

فاكر طبعًا: شهاب حسني (نااااادم ع اللي جرا مني) وحلمي عبد الباقي (ذكرياااااات.. شوق وحب.. قلب حب)، وخالد علي (محتار اختار مين فيهم) وابراهيم عبد القادر (ما أثرش فيك دمع الهوى لما بكا.. ولا يوم عنيك حست بقلبي اللي اشتكى.. يا خثاااارة!! يا خثارة يا أول حبيب.. مالكش في الطيب نصيب)، وسامح يسري، ومحمد زياد وباقي الفريق الكسر اياه.

فاكر طبعًا: سر الأرض وعالم الحيوان ولقاء الشيخ الشعراوي واخترنا لك يوم الأربعاء واليوم المفتوح يوم الخميس وسهرة السبت على القناة الثانية من إخراج فتحي عبد الستار والأوسكار يوم الخميس ونادي السينما يوم السبت من تقديم درية شرف الدين قبل ما تبقى دكتورة.

فاكر طبعًا: جولة الكاميرا لهند أبو السعود، ونافذة على

العالم، وعالم البحار للدكتور حامد جوهر بتاع "مصاء الخير" والعلم والإيمان للدكتور مصطفى محمود.

فاكر طبعًا: نشرة 9 وأحمد سمير ومحمود سلطان وزينب سويدان وسناء منصور ومسعد أبو ليلة وخيري حسن.

فاكر طبعًا: سبعة، سبعة واربعين، مية وعشرين إذاعة!!

فاكر طبعًا: قرآن السادسة صباحًا، يعقبه نحن معكم على الهواء وقطرات الندى وهمسة عتاب وإلى ربات البيوت وقال الفيلسوف وأنت تسأل و..... الكمبيوتر يجيب.

فاكر وفاكر وفاكر..

طبعًا فاكر.. كل اللي خلاص.. انتهى!!

أبـي

أبويا راجل عصامي وعظيم وأطيب من الطيبة.

أبي (اللي هو أبويا برضه) هو ابن لشيخ أزهـري معمـم يخطـب الجمعة ويقرأ القرآن في المـآتم ولـه تلاميـذه الـذين حفظـوا القـرآن علـى يديه، كما أن جدي –رحمه الله– كـان نـاظرًا لأكـبر مـدارس الـشرابية (مدرسة عمرو بن العاص) قبل أن يبني مدرسته التي يمتلكها (أو هكذا كان) وهي مدرسة الشرابية.

لكن أبي لم يكن على وفاق مع الدراسة.

صحيح أنه درس حتى الثانوية العامة، وصحيح أنـه كـان يقـوم بالعديد من الأنشطة من خلال اشـتراكه في الإذاعـة المدرسـية وفي فريـق الكشافة، إضافة إلى أنه كان ينظم الشعر وكان بيت الشعر الوحيد الـذي يتذكره ويقوله لي دائمًا هـو مقطـع يتـيم يقـول فيـه "مدرسـة الظـاهر

مدرستي.. أتعلم فيها الهندسة" طبعًا بكسر التاء المربوطة حتي تكون هناك قافية. إلا أن أبي لم يستكمل دراسته الثانوية وفضل دخول الجيش. كان يمكن أن ينجح لأنه ابن الناظر مثلاً وجميع مدرسي الشرابية يعرفون والده لكنه فضل أن يترك الثانوية ويدخل الجيش.

في الجيش كان أبي كأي متطوع يصل الليل بالنهار حتى قرر الزواج، وكان زوج عمتي (محمد عبد الغفار) -رحمه الله- يعرف عائلة والدتي وهو الذي رشحها لأبي ليتم الزواج بسرعة ويسكنوا في حلوان.. وقتها كان أبي يعمل في الجيش وبعد فترة حمل مليئة بالمتاعب ولدت أمي فاطمة، أو هكذا أرادت أن تسميها لأن الممرضة التي جذبتها لم تفعل ذلك بطريقة صحيحة فخنقتها وماتت قبل أن تكمل دقيقة واحدة في هذه الحياة.

حمل أبي فاطمة ودثرها ببطانية صغيرة ومشى بها في الشارع وهو يحاول أن يمنع دموعه والناس تهنئه بالمولودة الجديدة وهم لا يعرفون أنها ميتة، وظل يمشي إلى أن وجد ميتًا يستعد للخروج من عند الحانوتي فطلب إليه أن يدفنها معه ووافق أهله على الفور (عشان ترحمه).

بعدها عاد أبي إلى الشرابية ليبدأ من جديد، ولأن حالته المادية كانت صعبة في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات فقد أضاف إلى عمله في

الجيش عملاً إضافيًا هو (فطاطري) في محل أحد أبناء عمه الكثيرين الذين يعملون في نفس المهنة ولهم محلات (أو عربيات) إلى الآن في الشرابية.

بعد ولادتي واختيار اسم (محمد) لأن (خير الأسماء ما حُمد وعُبد) يقولون إنني كنت صعب المراس وإن بكائي كان هو الأساس ونومي هو الاستثناء، كما أنني لم أكن أصمت إلا لو نزل أبي إلى الشارع ليتجول بي قرابة الساعتين ويعود الفجر ليصلي قبل أن ينزل إلى الشغل من جديد.

أبي كان مستعدًا —ولا يزال- لإرضائي بأي شيء أطلبه وهو من عينة الآباء التي تردد دائمًا أنها تربي أبناءها ليكونوا أفضل منهم، وبسبب مشاكل قديمة بين أمي وعائلة أبي لم أكن متواجدًا لفترات طويلة في بيت العيلة عند جدي، ولهذا لم أحفظ القرآن في صغري.

علمني أبي حب القراءة من خلال مجلات الأطفال التي كان يشتريها دائمًا لي رغم عدم تعلمي القراءة وقتها، وحين دخلت إلى المدرسة كان يشجعني على القراءة ويشتري لي كتبًا يقول إنها ستنفعني بشدة حين أكبر، وقد كان.

كان أبي هو الذي يحنو -بعد عودته من (الشغل)— ويطبطب على العبد لله بعد أن تشتكي أمي من شقاوتي وأشتكي من زعيقها لي،

ويلطف الأجواء قبل أن يلعب معي، ويشتري لي العديد من اللعب التي يعرف أنني سأكسرها وقد تكسرها أختي لكنه لا يتوقف عن شرائها أيًا كانت ظروفه المادية.

عودني أبي على شراء الصحف له كل صباح، ومتابعة (نشرة 9) بمنتهى الاهتمام فأحببت قراءة الصحف وصرت على علم منذ صغري بعدد كبير من الأحداث وصارت لي ثقافة أغلبها كان سمعيًا (من نشرات الأخبار) أو من خلال قراءتي لصحف الأخبار والجمهورية فقد كان أبي يكره الأهرام ويراها تتعالى على القاريء البسيط رغم أنها كانت بالنسبة لي أشبه بالوجبة الدسمة.. في تلك الفترة كنت وأبي نتابع بشغف برنامج أطفال اسمه (البرلمان الصغير)، كان يكتبه نادر أبو الفتوح ويخرجه شكري أبو عميرة، ويشارك فيه أطفال يقومون بمحاكاة لمجلس الشعب، لكنه مجلس شعب للأطفال ويتحدثون عن حقوق الطفل وعن عدد من المشكلات والقضايا، وكان رئيس البرلمان هو (وسام حمدي) وأحد أشهر أعضائه اسمه عبد الصمد الذي عرفنا فيما بعد أنه يحمل اسم (فادي خفاجي) وهو نفسه (شرف الدين) الذي ظهر في مسلسل يوميات ونيس مع محمد صبحي، وكان أبي يريد أن يجعلني أظهر في هذا البرنامج على اعتبار أنها (عيال تفرح)، ولأن الكتاتيب لم تكن موجودة ولأنني كنت قد كبرت قليلاً فلم

أستطع حفظ القرآن على صغر –والسورة الوحيدة التي حفظتها على يد جدي كانت سورة الزلزلة وحفظتها في عشرة دقائق تقريبًا وهو ما دفع جدي لأن يخرج حافظته ويعطيني –كما قال– نص ريال (بريزة يعني أو عشر قروش)، لكن حفظي للعديد من سور القرآن الكريم جاء فيما بعد بسبب مواظبة أبي على الاستماع لشرائط كبار قراء القرآن من خلال مكتبة كبيرة كونها منذ شبابه، جمع فيها القرآن بأصوات مصطفى إسماعيل وعبد الباسط عبد الصمد والحصري والمنشاوي ومحمود علي البنا والطبلاوي. كان أبي فخورًا بالشيخ شعبان الصياد لأنه بلدياته ويعرفه جيدًا، كما أحب أبي أصوات راغب مصطفى غلوش وعبد العزيز علي فرج وعبد العظيم زاهر، وكان آخر من أحبهم أبي هو شيخ اسمه (السيد متولي) سجل عددًا من الشرائط اشتراها أبي بالكامل لكن الشيخ توقف عن تسجيل باقي المصحف نظرًا لإفلاس شركة الكاسيت وهو ما أحزن أبي كثيرًا...

هكذا كانت حواراتي مع أبي عبارة عن ذكرياته مع الشيوخ، ومناقشاته لي في أصواتهم وطرق قراءاتهم، وكان يختبرني في التفرقة بين أصوات الشيوخ ويفاجئني بأن يحول مؤشر الإذاعة على محطة القرآن الكريم قبل أن يسألني: (مين اللي بيقرا ده؟)، على أن التواشيح الدينية كانت مثار أغلب المناقشات خاصة مع مصاحبة أبي في فترة من

فـترات حياتــه للــشيخ (نــصر الــدين طوبــار) أحــد أشــهر المبتهلين وأعذبهم وأشجاهم صوتًا، لدرجة أنه صرف أموالاً كثيرة على (بروزة) العديد من صور الشيخ نصر وغيره من قراء القرآن، وكـان يـوم وفاة نصر الدين طوبار –رحمه الله– يوم حزن وحداد في بيتنا.

فيما بعد علمني أبي الذهاب إلى معرض الكتاب وشراء مـا أريـد من كتب، وكان يحلم لي أن أكـون طبيبًـا حيـث يـرى لقـب دكتـور هـو الأفضل بالنسبة لي، ويزعل جدًا إذا قلت له "نفـسي أكـون ظـابط" وهـو الحلم الذي كنت أحلم بــه يـوم ظننـت —وبعـض الظـن إثـم— أن أغلـب الضباط شرفاء وأبطال في حين أن العكس هو الصحيح.

ظللت —لأسباب أجهلـها حتـى الآن— أشـعر بافتقـادي الـشديد لأبي مهما جلست معه أو تحدثت إليه، ولربما كان عمـل أبـي سـببًا في ذلك حيث كان يعود يوميًا من الجيش في السادسة مساء ويتناول غـداءه معنا قبل أن يجلـس لأقـل مـن سـاعتين فقـط يحـاول فيهـا القيـام بكـل واجباته الاجتماعية تجاه عائلتـه وجيرانــه ثـم ينـام مبكـرًا ليـستطيع الاستيقاظ فجرًا.

في فترة من الفترات كدت أفقد أبي عندما تشاجر مع أحد رؤسـائه وحكى لنا أبي بعد عودته من غيبة طويلة كيف أنــه ضـرب أحـد الـضباط

وتسبب له في إصابات جسيمة لأنه أهانه، ويومها استغربت جدًا للرواية التي أكدها العديد من أصحاب أبي وزملائه فيما بعد لأن أبي كان لا يحتمل رؤية الدماء، لكنني تعلمت أن الكرامة (غالية جدًا) وأن التفريط فيها مستحيل. كنت أحب أبي أكثر من أمي في تلك الفترة وهو ما أثار حزنها حين ظهرت مصادفة في برنامج كان يحمل اسم (أماني وأغاني) وسألني جمال الشاعر بتحب مين أكتر بابا واللا ماما؟ فكانت إجابتي على الفور (بابا طبعًا) وحينما سألني: ليه طبعًا؟ قت له لإنه صاحبي ويسمعني ويتحاور معي وانا شايف إنه مربيني كويس وإن دي العلاقة اللي لازم تكون موجودة بين الأب وابنه عشان نطلع رجالة بجد مش ناس عندهم عقد وخلاص. قلت ذلك وأنا في الصف الثالث الإعدادي وصفق الناس لي بينما اتكسفت حين عدت للبيت من أمي لأنني أدركت يومها فقط أنني أحبها لدرجة لايمكن وصفها أو تخيلها.

وأنا في الثانوية العامة لم يمانع أبي من أن يشتري لي أي كتاب خارجي مهما كان ثمنه شريطة أن أنجح بمجموع عال يؤهلني لأن أكون شخصًا محترمًا. لم يجبرني أبي على شيء وإنما طلب إليّ أن أكون شخصًا محترمًا وألا أجلب له كلمة من أحد.

قلت له إنني أريد أن أكون ضابط مخابرات أو بطلاً مثل رأفت

الهجان فلم يسخر مني وإنما كان يكتفي بابتسامة وهو يقول لي (طب اتجدعن وربنا يوفقك).

كنت أريد أن أصبح مثل أدهم صبري ضابط المخابرات المصرية الذي هزم أجهزة مخابرات العالم ورفع اسم بلده عاليًا وكان أبي يشجعني على ذلك، وفي تالتة ثانوي سألت أبي عن عنوان المخابرات العامة فنظر لي متوجسًا خيفة، وحين قلت له إنني سأذهب إليهم لأسألهم عن جمعة الشوان الحقيقي (اسمه أحمد الهوان) وأجري معه حوارًا لمجلة سمير لم يخف علي ولم يمنعني، وذهبت بالفعل للمخابرات وقابلني شخص على الباب أجلسني في الاستقبال –لو صحت تسميته كذلك– قبل أن يعود لي ويخبرني بأنني يمكنني التوجه لمكتب المخابرات في السويس للسؤال عما أريد باعتبار أن الهوان من سكان السويس، وصدقت لكنني لم أذهب للسويس أبدًا لأن أبي أقنعني أنها كانت أشيك توزيعة في التاريخ.

على أن نوبات غضب أبي عليّ زادت في تلك الفترة، وعلى قلة ضربه لي إلا أنه كان يستسهل صفعي وهو ما يزال يؤلمني حتى يومنا هذا لأنني اعتبرت أن في ذلك إهانة وأخذت عهدًا على نفسي من يومها ألا أصفع ابني مهما كانت الظروف.

ترك أبي الجيش واستفاد من فلوس المعاش المبكر في شراء شقة لم أحبها أبدًا، والأغلب أنه نُصب عليه فيها وهو يعلم هذا جيدًا، لكن (الحمد لله على كل شيء) هي كلمة أبي المفضلة التي يستطرد بعدها (نعمل إيه يا ابني.. نصيبنا كده)!!

ظلت علاقتي بأبي قوية إلا أنها راحت تذبل مع الوقت وتتحول إلى روتين في الجامعة حيث تحول اهتمامه إلى شقيقتي الصغرى على اعتبار أنني مفروغ مني وسأنجح لأنني متفوق كما أن (لساني حلو مع الناس) وهو ما تعلمته منه، أما (دينا) فقد كان قلقًا عليها لأن (حظها وحش في الدنيا) وهو ما كنت أعترض عليه حينها وما أدركت الآن أنه حقيقة علمية!!

أكثر ما يغيظني في أبي هو(الفشخرة) بسعادة جناب حضرتي.

كان يأخذ مجلات سمير التي تُنشر فيها موضوعاتي بعد أن صرت مراسلاً صحفيًا ناشئًا بها ويريها لكل الناس وهو يخبرهم أنني ابنه وكيف أنني متفوق وصحفي كبير، واستمرت هذه العادة مع أبي حتى يومنا هذا لحظة كتابة هذه السطور، ولطالما تشاجرنا سويًا بسبب ما يفعله والذي يجعلني في (نص هدومي) دائمًا، لكنني كففت عن الشجار يوم قال لي: مش من حقي افرح بتربيتي يعني واللا إيه؟

أدركت لحظتها أنني الانتصار الوحيد في حياة أبي

وأن من حقه أن يزهو بانتصاره مهما آلمني ذلك أو أحرجني وإن لم أستطع أن أخفي ضيقي مما يفعل في كثير من الأحيان.

الغريب في الأمر أنه حتى وقت قريب جدًا لم يكن أبي يقرأ لي شيئًا ولم يكن يناقشني فيه، ويبدو أنه بدأ فعلاً في قراءتي يوم اتجهت للصحافة بدلاً من القصص الساخرة التي نشرتها في مجانين، والقصص القصيرة التي كنت أحتفظ بها في درجي أو التي نشرتها في مجموعتي الأولى (بجوار رجل أعرفه).

ذات مرة حضر لي أبي ندوة في معرض الكتاب فوجدت نفسي أطلب إليه الصعود للمنصة قبل أن أحييه على ما فعله من أجلي وأطلب إلى الجميع التصفيق له بشدة وهو الموقف الذي أثر فيه كثيرًا، كما أثر في أمي لأنها لم تكن موجودة أساسًا.

جرحني أبي ذات مرة جرح لم أستطع نسيانه لكنني أبدًا لم أكرهه أو أحاول الابتعاد عنه. أهانني ذات مرة بأن صفعني أمام زملائي حين قاطعته لكنني تعديت الأمر بسهولة لحظتها وكأنه فعل أمرًا روتينيًا.

لا زلت أحب أبي وسأظل.

ولا زلت أفتقده كثيرًا.. مهما عوضني عن غيابه القديم.

والله زمان.. زمان والله

لا أعرف لغة أطفال مدارس اليومين دول فلا أنا مدرس ولا ابني دخل المدرسة بعد، لكن في المدرسة كانت لنا العديد من المصطلحات والعبارات المفتكسة التي يعرفها أي ولد لا لشيء إلا لأنها الماركة المسجلة والعملة المستخدمة بين العيال هناك.

طبعًا أنتم تذكرون (أوضة الفيران) الأسطورية التي كانوا يهددوننا بها إذا لم نقم بعمل الواجب، وهي أوضة وهمية مثلها مثل العسكري والبعبع وابو رجل مسلوخة وأم 44 والشمامة التي ستقرصنا من شفاهنا إذا لم نغسل فمنا بعد الأكل.

في الابتدائية والإعدادية – وربما الثانوية- سمعت الكثير من العبارات التي تعتبر ماركة مسجلة لجيلنا، وبحثت في كل الكتب عن أي أصل لهذه العبارات فلم أجد أي شيء.

خذ عندك مثلاً في المدرسة، وعند مجيء (الفسحة) تجد الجميع

يـردد بمنتهـى الحماسـة (فـسحة.. فـسحة.. عـم خليـل القزعـة)، وأمـوت واعـرف مـن هـو عـم خليـل القزعـة ولمـاذا ارتـبط بالفـسحة، وكيـف انتـشرت العبـارة لتـصبح معتمـدة في كـل مـدارس الـصبيان في مـصر، وهـل هـو شخـصية حقيقيـة أم شخـصية أسـطورية فلكلوريـة أم أن القافية حكمت، وإذا كانت قد حكمت فعلاً فلماذا خليل بالذات، ولماذا (قزعة).

وفي نفـس الـسياق يجـب ألا تنـسى الهتـاف الـشهير بعـد كـل امتحان (شي.. حاا.. ناجحين ان شاء الله) والـذي كـان أشـبه بالنـشيد الوطني لتلاميذ الابتدائي والإعدادي.

ولأن الإنسان ابن بيئته فقد كانت صدمة حضارية للعبـد لله – حين دخل الحضانة للمرة الأولى- أن يكون طلـب دخـول (الحمـام) لـه أكثر من صيغة تتغير حسب المستوى الاجتماعي وهو ما يـذكرني بـــ(لا لا) اسم التدليل للولد الذي زاملني في حضانة الشباب المسلم والذي كـان يطلب من الميس أن (يروح يعمل كاكـا) وسـط ضـحكات الجميـع، فيمـا كنت أتساءل دائمًا عن معنى كلمة (أتـسير) الـتي كـان يقولهـا الأخ (لا لا) في أوقات أخرى، ورغم أن الموضوع على بعضه مقرف وأعتذر لك إن كنـت مـن الإخـوة بتـوع (ببيـه) زي حـالاتي إلا أن الأمـر كـان مـثيرًا لاستغرابي ولفضولي في الوقت ذاته.

في وقت لاحق تنوعت المفردات بالنسبة لنفس الموضوع وصار هناك (الخفيف) و(التقيل)، وكان هناك (عيال مبتذلة) تنطق بالفعل نفسه بمصطلحه الأكثر وضوحًا وصراحة وهو ما لا أستطيع كتابته منعًا للإغماء المحتمل للقاريء المحترم (إن وجد).

في الثانوية أصبح الموضوع أكثر ابتذالاً وكادت تحدث مأساة حين قال أحدهم للأبلة ناني (وهي كائن حي يدرّس اللغة العربية أو هكذا يتخيل): أبلة عايز أروح (أطرطر)، وهو ما أصاب الأبلة بنوبة هياج جعلتها ترقع بالصوت وهي تقول له ما تظن أنه شتيمة وإهانة ستجعل الولد يشعر بالمذلة أو الخطأ (يا حيوان.. يا سافل.. يا منحط) في حين كان الجميع مستلقيًا على قفاه من الضحك.

لا زلت أذكر كذلك مباريات كرة القدم بين الأهلي والزمالك والتي كان يسبقها هتافات وشعارات من نوعية (زمالك حديد الأهلي سيحه.. حطه ف علبة وراح يفسحه) وهي العبارة التي كان يتم عكسها لو كان قائلها زملكاويًا حيث سيكون الأهلي ساعتها هو الحديد الذي سيحه الزمالك وذهب به إلى نزهة.

من أشهر المصطلحات والعبارات المأثورة أيضًا التي لا أنساها هو ما يتعلق بمحمد مرسي الذي كان أضحوكة الفصل لأفعال لم يرتكبها أبدًا حيث يردد الفصل في الابتدائية ما إن يراه أغنية لا تعرف من

مؤلفها ولا مناسبتها هي (محمد مرسي.. قاعد ع الكرسي..
بيشرب خمرا.. في قزازة حمرا.. تحت الكراسي.. بيقول يا راسي) إلى آخر الأغنية التي غالبًا ما تنتهي بالعبارة الأشهر (عسكر فوق وعسكر تحت.. إخص عليك يا بتاع الكحك) وهي العبارة التي تجعلك تراجع تاريخك كله باحثًا عن علاقة بين العسكر والكحك، والتأكد من وجود أي حروب أو اعتصامات أو مظاهرات قامت بسبب كحك العيد، وهو ما يذهب بخيالك المريض إلى كون (بتاع الكحك) هو الذي وشى بمحمد مرسي ولذلك (إخص عليه).

هناك أيضًا عبارات السباب غير المباشر التي تعتمد على إدخالك في الفخ مثل أي غر ساذج، وهو ما فعله وائل رجب مع عمرو فلفل حين قال له قول طاسة، وحين قال عمرو طاسة قال له وائل: أمك رقاصة!!

في فترة الخناقات والرخامة والغلاسة كان من الممكن أن تجد شخص لا تعرفه (طفل أو مراهق عادة) يجري إليك هاربًا من آخر وهو يقول في لهفة (في عرضك يا كابتن)، أي أنه وقع في عرضك لإنقاذه من فتك الآخر به، ودائمًا يرد الآخر (العرض عرض مَرَة) على أساس أنك لامؤاخذة (مَرَة) يعني واحدة ست وأن كل من سيحمي هذا الولد في حكم (المرة)، ولكنك في حالة صياعتك المبكرة ستكتشف أنك ستسقط هذا القسم بمجرد أن تقول فورًا (العرض عرض راجل) وساعتها

سيبتعد عنه منتظرًا خروجه من عرضك!!

هناك عبارات الإشارة إلى أفعال مشينة تحدث بين اثنين من العيال ولم نكن نجد لها توصيف سوى الهتاف الشهير (إطفي النور يا سعد. اتنين..... بعض) وهو ما يثبت أن الأخ سعد هذا كان – لامؤاخذة– قرني.

بمناسبة قرني لا ننسى عبارة الشماتة الشهيرة (يا عيني يا قرني) التي كنا نقولها للعيال الذين نكرههم حين يصيبهم أي أذى من أي نوع، وغالبًا كان الرد من نوعية (كبسة كبوسة واللي يكبسني يبقى جاموسة)

ولمزيد من الحنين إلى أيام تلك الفترة دعني أذكرك بأجواء اللعب، فلو كانت اللعبة (كهربا) فلابد من (كولو بامية)، ولا نعرف أيضًا لماذا البامية تحديدًا لكن هكذا تعودنا، أو أن هذا ما ألفينا عليه آباءنا، وبكل فخر يجب أن أذكرك بفخر الألعاب المصرية متمثلة في العديد من الألعاب التي كنا نمارسها في الشارع أو في حوش المدرسة، وأخص بالذكر (تيرو) و(قفاشة الملك) و(كيك ع العالي وكيك ع الواطي) و(الأولى الحديثة) –لأن القديمة كانت بتاعة البنات– و(السبع طوبات) ولعبة (مصر سوريا) و(صيادين السمك) التي كنا نلقف فيها الكرة ونحرص على ألا تخبطنا ثم تسقط منا لأننا بذلك سنكون وقعنا، أما (شقط) الكورة فمعناه أنك أحرزت ما يشبه البوناس وكنا نسميه

(بيضة) وهي البيضة التي تتيح لك أن تبقى لفترة أطول أو تستعين من خلالها بأحد أفراد فريقك، ولا بد كذلك أن نذكر اللعبة الشهيرة (في العش واللا طارت) التي كنا نضع فيها حصاة صغيرة في كفنا ونظل نلوح به حتى يقول لنا الخصم بعد أن نتوقف هل لازالت الحصاة في الكف (العش) أم أنها غادرته (طارت)، ويحلو لي ها هنا الإشارة إلى الخدعة الشهيرة التي كنت أتبعها في هذه اللعبة حين أخدع خصمي وأضع حصاتين بدلاً من الحصى الواحدة بحيث يراها تطير بأم عينه، وحين أتوقف ويقول لي (طارت) أفرد كفي بالحصاة الأخرى وأنا أقول له (في العش يا اضبش) والجميع يضحك عليه.

في لعب الكورة لا تنسَ طبعًا تقسيم الفرق حيث يبدأ كابتن الفرقة الأولى بقوله (سين صاد) فيرد الكابتن المنافس عليه (اختارلك أحسن صياد) ليختار كل منهما أفراد فريقه بمبدأ واحد ليك وواحد ليا منعًا للشللية، وهي تجربة تعلمك حسن التفاوض وسرعة الاختيار لكنها تصيبك في النهاية بطوبة في رأسك إذا انتهى الماتش بخناقة.

في لعب الكورة في الشارع كان هناك الجون المشترك الذي يقف للفريقين، ويجب أن يحدف الكرة من وراء ظهره وأن يحاول صد كل الكرات حتى لا يتهم بمحاباة فريق على الآخر -وهي المحاباة التي لها اسم آخر يعف الكيبورد عن ذكره-، أما في حالة وجود ملعب

رباعي أو خماسي يتسع لفريقين كنت تجد أحدهم يسارع فيقول: أخير اجوان (أي أنه سيكون آخر من يحرس المرمى) قبل أن يتابع الباقون: قبل أخير وقبل قبله، وهكذا يجد الأخير نفسه أول من يحرس المرمى ويتخانق دائمًا مع أفراد الفريق الذين لم يحددوا له فترة فك سراحه ونزوله للعب وهل هي بعد (جون فينا) أم (جون فيهم)، وفي الحالتين كانت تواجهه مشكلة كبرى تتمثل في قانون شوارعجي خالص وهو (الجون اللي يطلع من جونه يتكسر)، حيث لا يحتسبها الحكم فاولاً أبدًا في حالة (الجون الثابت) ولتلافي هذا الأمر يجب الاتفاق من البداية على كون (الجون مغازل) أي أنه سيخرج للعب والمغازلة والترقيص متمتعًا بنفس ميزات اللاعب العادي مع اختلاف إنه الوحيد الذي يمكنه الإمساك بالكرة عند مرماه باعتباره حارس مرمى في نفس الوقت (البنات لا يرهقوا أنفسهم بمحاولة الفهم وليعتبرونها سطورًا زائدة.. بينما الولاد فاهمين كويس أنا بتكلم عن إيه)

وإذا عدنا للأقوال المأثورة سنجد هناك عبارات التشجيع على المزيد من الفرجة، حيث يهتف المتفرجون عندنا على أي خناقة حامية تحدث أمامهم في حوش المدرسة (عاوزين دم.. عاوزين دم)، وهناك عبارات التحريض حيث يقف أحدهم ومن خلفه العيال المتشردون ليغتالوا خصمهم معنويًا، حيث يردد الواد: ويشاوروا عليه ويقولوا:..

فيرد الجميع: العبيط اهه.. يشاوروا عليه ويقولوا.. العبيط اهه.. يشاوروا عليه ويقولوا.. العبيط اهه.

على هذا المنوال تجد الشيخ سيد الشهير الذي نهتف باسمه دون أن نعرفه، حيث نردد جميعًا قبل العيد الكبير (بكرة العيد ونعيد.. وندبحك يا شيخ سيد)، ولا بد أن هذا الشيخ فعل جرمًا يستحق عليه الذبح في العيد، أو أنه يشبه الخروف لدرجة قد تجعل الجزارين لا يميزون بينه وبين ما سيذبحونه من خراف، وفيما بعد قال لنا البعض إن هذا الهتاف من اختراع المسيحيين (الكفاتسة) للنيل من هيبة الشيوخ عند المسلمين وهو التفسير الطائفي الذي يضحكك أكثر مما يثير غضبك خاصة وأن نكات الفتنة الطائفية الشهيرة تنتقم من مئات القساوسة بين الحين والآخر، وكله –إن جيت للحق– لعب عيال.

بالطبع لا أنسى في هذه المناسبة الجليلة الأستاذ أبو زحلف، وكان مرتبطًا بالحلفان الكذب الذي لا يريد أحد أن يحلفه، فإذا قلت للواد من دول: احلف، يرد بمنتهى السرعة: وحياة أبو زحلف اللي عمره ما يحلف، ولا أعرف ما هي السلطات الدستورية التي تخول للأخ أبو زحلف إن عمره ما يحلف، وهل لو تم استدعاؤه في محاكمة ما للإلقاء بشهادته وطلب إليه القاضي أن يقول: والله العظيم أقول الحق، سيعتذر للقاضي مخرجًا رقمه القومي ومؤكدًا أنه أبو

زحلف اللي عمره ما يحلف أم أنه سيضطر وقتها فقط للحلفان.

كما لا أنسى تهديدات والدي لي بالعديد من الأشياء، خاصة في حالة عدم غسيل فمي حيث كان يخيفني بكائن أسطوري اسمه (الشمامة) يقول لي إنه سيعضني من شفايفي، وكان يستغل فترة إصابتي بالسخونية ونطرها على شفايفي لتأكيد الأسطورة مؤكدًا أن هذا من فعل الشمامة التي لا أعرف ماذا شمت بالضبط.

فيما بعد صارت جدران مخاوفي تتلخص في العاو وأم 44 والعسكري وأمنا الغولة التي كتبت من أجلها خصيصًا حلقة كارتون للأطفال كانت هي بطلتها التي تبكي لأن الأطفال يكرهونها بينما هي في غاية الطيبة، حتى أنها ساعدت أبطال مسلسل الكارتون على الهروب والنجاة بحياتهم لأنهم أحضروا لها هدية عيد الأم، وغنوا لأمنا الغولة: ست الحبايب.. يا حبيبة!!!

عم احمد.. بتاع زمان أهه!!

أن تكون طفل تخين وملظلظ.. عذاب

لكن أن تكون طفل تخين وملظلظ وتحاول أن تكون لاعب كرة قدم (جامد جدًا) في مركز شباب الشرابية، فهذا هو الجحيم بعينه.

في الصف الثاني الإبتدائي، كان على أبي أن يحاول الحفاظ على العبد لله من لعب الشارع وسماع الألفاظ القذرة من العيال الصيع -الذين يرميهم أهاليهم في الشوارع طوال النهار والليل لأسباب قد تتعلق أحيانًا ببقاء الجنس البشري- ولذلك كان أقرب نادٍ لنا (مركز شباب الشرابية) هو الملاذ الوحيد لكي لا ألعب في الشارع.

المفاجأة التي علمها أبي متأخرًا أن زملائي هناك يسكنون إما في العشش الصفيح عند شريط السكة الحديد وإما في (الحكر) وهو مكان أسطوري داخله مفقود وخارجه مولود، فما بالك بمن يسكن فيه،

وأنهم أصلاً من محترفي لعب الشارع ويذهبون إلى النادي في أوقات امتلاء الشارع بالآخرين!!!

حين اشترك لي أبي في النادي كان لابد لي من اختيار لعبتين (حسب ما أتذكر)، ووجدتني أختار كرة القدم والكاراتيه، وهو ما كتب على كارنيه العضوية الذي دفعت من أجله جنيه وربع تقريبًا على أن أقوم بتجديده سنويًا.

كنت أحلم بأن أكون لاعب كرة قدم كبير مثلي مثل الخطيب لولا أن الخطيب لم يكن (ملظلظ). عشقت في هذه المرحلة حرفنة الخطيب وأدبه وأخلاقه، كما أحببت قذائف طاهر أبو زيد التى لا تصد ولا ترد (بس المهم تلبس صح)، وكنت أشوط الكرة في بيتنا فإذا بها تكسر الشباك وحين تكتشف أمي ذلك أقول لها إن الشباك اتكسر لوحده، وأفعل ذلك وأنا ممسك بالكرة بين يدي. أحببت جدًا علاء ميهوب، وحين كبرت قليلاً حزنت للغاية عندما استغنى عنه الأهلي مع طاهر أبو زيد وفرحت حين لعب ميهوب للأوليمبي وأحرز هدفًا في مرمى الأهلي وبكيت معه بعدما أحرز الهدف.

المشكلة أن أكوام الشحوم والدهون التي ترسبت داخلي بفعل أكل كل الحاجات الحلوة مع سبق الإصرار والترصد جعلت من تحقيقي

لحلمي شيئًا مستحيلاً، فإذا أضفنا أنني لا أجـري في الملعـب إلى عدم تمتعي بمهارات فردية عالية في الترقيص أو (تنطيق الكورة) – لزوم التناكة قبل كل ماتش– إضافة إلى وجود (عيال لعيبة) مثـل عـلاء لبانة (كان الوحيـد الـذي يلعـب واللبانـة في فمـه وكـان أسـرع عـداء في اللاعبين)، وفريد حسن (واد لعيب أعتقد أنه الآن يعمـل في الـسباكة أو ما شابه) وعبد العزيز بودي (وغد بكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معـان حتى في لعب الكرة، وهو النموذج الأسوأ من إبراهيم سـعيد وقـت قمـة مشاكله) أصبحت المحصلة أننى لن ألعب كرة قدم.

هكذا إذن كنت أكذب أحيانًا عامدًا متعمدًا مـضحيًا بالـذهاب إلى النار على العديد من هؤلاء العيال (اللاعبين) وأنا أقول لهم إنني قدمت في اختبارات الترسانة وإنـني قُبلـت مبـدئيًا، وإن اللعـب هنـاك يفـتح النفس بينما هنا (في الشرابية) قلة قيمة.

لكن كل أحلام وأحداث هذه الفترة في كفـة، وعـم أحمـد في كفـة أخرى.

اسمه أحمد الفرماوي. يقولون إنه كان لاعب كرة قدم شـهيرًا في الستينيات، ولكنه لم يكمل بسبب حادثـة شـهيرة تعـددت الأقـوال في نوعهـا أو توقيتهـا أو حتـى مكانهـا، ولم يكـن عـم أحمـد يـريح أحـدًا

فيحكي له الواقعة الحقيقية كما في دفتر ذاكرته المليئة بالحكايات.

منذ دخلت النادي والناس تناديه (عم احمد)، ولم ألمح منهم من يقول له يا كابتن أبدًا لأسباب لم أعرفها حتى يومنا هذا.

عم احمد كان مدرب براعم وأشبال كرة القدم بمركز شباب الشرابية، وهو قصير القامة كبير السن شعره أبيض ولديه عين واحدة – بعد أن ضاعت الأخرى في الحادثة الأسطورية الغامضة سالفة الذكر، والتي تتفق روايتها على كونها بسبب لعب الكرة-، وكان حذاء (باتا) الأبيض الشهير أهم ما يميزه، كما أنه كان –حتمًا– قد تعدى الستين، وهو من تلك الفئة من البشر الذين تعرف أنهم تعدوا الستين وتوقف السن لديهم عند تلك المرحلة فلم يتعدوا السبعين أبدًا مهما مر الزمن عليهم.

كان عم احمد يعلمنا كيف نستقبل الكرة فيما يسميه (التوقيف)، وكيف نمر من خصومنا (المغازلة)، وكيف نمرر الكرة دون أن نخطيء طالما أنها (ببطن الرجل).

كان يفعل ذلك وفي يده جلدة أو خرزانة يضرب بها المخطيء، وفي المباريات التدريبية كان من الوارد جدًا أن يجري بالجلدة وراء عيل مرر كرة خاطئة، أو رفض فتح الملعب (تكون في عز الهجمة وإذا به يصرخ إفتح الملعب ويا ويله يا سواد ليله من لا يعيد الكرة إلى الدفاع)،

وكان قاموس عم احمد مليء بالعبارات الغريبة.

يعني مثلاً من أقوال عم احمد المأثورة:

" يا إرهابي يا ابن تلاتين كلب"، ويقولها لمن لا يريد فتح الملعب بالطريقة التي شرحناها.

"أنا عارفكم يا مرتزقة"، ويقولها للعيال التي تريد أن تلعب في نفس الفريق أو يدافعون عن بعضهم البعض.

"شرابية كسكسي"، ويقولها لمن لا يريد أن يفهم ما يقوله من تعليمات إذ يعتبره فاشلاً بسبب كون الشرابية كلها —عدم اللامؤاخذة— كسكسي، والمعنى في بطن الشاعر (اللي هو عم احمد).

"عيال وسخة " يقولها على من يهدرون الفرص السهلة أمام المرمى ويستوي فيها العيال الصغيرة مع نجوم اللعبة آنذاك!!

"أنا ما عنديش خيار وفاقوس": ويقولها لكل من يأتيه بواسطة ويمارس سلطات واسطته حين يطلب إليه أن يلعب مع شخص بعينه من أصدقائه، والغريب أنه بعد تلك الجملة كان يوافقه على ما يريد أيًا كان.

كل ذلك كان يتم في جو من المرح والمحبة لشخص عم احمد الذي

يتمتع بكاريزما عالية جدًا، والذي تحب أن تسمع حكاياته عن اللاعبين الذين خرجهم لمصر بدءًا من (صفوت عبد الحليم) مرورًا بـ(هيثم حسين) و(مظهر عبد الرحمن) وأشهرهم (سمير كمونة).

مرتب عم احمد لم يكن يتعدى بالمناسبة أربعين جنيه. يعمل على زيادتهم بالحوافز التي يأخذها من النادي نظير قيامه برش الملعب بنفسه، وكانت الرشة بجنيهين ونصف، وكان الرجل مخلصًا للملعب، وخبرة في الخراطيم!!

لدى عم احمد طقوس يومية قبل بداية التدريب، تتمثل في جمع اللاعبين من براعم وأشبال وإعطائهم محاضرة الصباح التي تبدأ كالتالي:

- صباح الخير
- (الجميع بصوت جهوري): صباح النور يا عم احمد
- إزيكم؟
- (الجميع بصوت أكثر جهورية): الله يسلمك
- كويسين
- (الجميع برضه): الحمد لله

وكـان علـى الجميـع أن يرفعـوا أيـاديهم للـسماء في العبارة الأخيرة، ولا أدري كيف كانت عين عم احمد الوحيـدة تلـتقط من لا يرفـع يـده وسط كـل هـذه الحـشود لكـي يجعلـه أضـحوكة هـذا الصباح، حيث سيسبه سبًا شديدًا متهمًا إياه بأنه (ما بيعرفش ربنا)، وكان يمطره بعبارات أقلها وطأة:

"طول ما انت ما بتتواضعش للي خلقك، عمـرك مـا هتبقـى لعيـب كورة، وهتفضل تشم كولة وتزفلط نفسك بالصابون يا إبن الكلب يا جزمة".

عاملني عم احمد دائمًا باحترام رغم قلة موهبتي في الكرة لأنني (واد مؤدب)، وكان يعيب على تخني مـشبهًا إيـاي بـالخنزير الـدكر، بينما كان لقبي الذي ابتكره أشرار النادي هو (دلة)، علـى اسـم شـركة الألبـان الـشهيرة الـتي كـان يمتلكهـا الـشيخ صـالح كامـل. ولم يكونـوا يلقبونني بذلك لأني صافي مثـل اللـبن الحليـب مـثلاً لكـن لأنـني —مـن وجهـة نظرهم المحدودة— أُشبه البقرة الكارتونية الـتي تـأتي في إعـلان (دلة) في التليفزيون.

سـبب آخـر جعـل عـم احمـد يحترمـني هـو أنـني (شـاطر) في المدرسـة، وكنـت أفـوز في المـسابقات الثقافيـة الـتي كانـت تجـرى في النادي، وكنت الوحيد من نشاط كرة القدم الذي يفعـل ذلـك بينمـا كـان

الباقون يهربون من أي مسابقة أو ندوة.

أحب عم احمد الهتافات التي كان يتملقه بها الآخرون أو يحيونه بها بصدق ومحبة حين يشارك في (التقسيمة)، حيث كانوا يرددون بصوت عال وفي نبرات حماسية منغومة: "عم احمد.. بتاع زمان أهه... عم احمد.. بتاع زمان أهه"، وكان يتفاعل مع هذه الهتافات بطريقة عملية فيعيد الكرة بكعبه في لمسة فنية تدل على حرفنته، أو تمويهة بحسده الضئيل تجعل خصمه يقع أرضًا، أو بأن ينظر إلى مكان ويلعب الكرة في مكان آخر تمامًا وهو يصرخ في اللاعب: رووووح، ليروح صاحبنا ويحرز هدفًا من تمريرة عم أحمد العبقرية، ولا زلت أذكر يوم أتى قدامى الأهلي للعب إحدى المباريات في مركز شباب الشرابية حيث لعب عم أحمد جزءًا من المباراة (لم يتعد خمس دقائق) استطاع فيها ترقيص ابراهيم عبد الصمد لاعب الأهلي الشهير في الماضي.

كدت أخسر علاقتي بعم احمد يوم ذهبت بمصطفى إليه وقلت له إنه يريد أن يتدرب معنا، وكانت تمريرات مصطفى كلها خاطئة، وكان عم احمد يصبر عليه من أجلي وهو يكظم غيظه لولا أنه لم يستطع أن يواصل صبره حين (قلش) مصطفى إحدى الكرات لتلبس مباشره في وش عم احمد الذي جري خلفه بالخرزانة وهو يحاول الفتك به مرددًا: ما

تجيليش هنا تاني.. الله يسامح اللي حدفك علينا.

أما قمة نرفزة عم احمد فكانت تتجسد أمامنا في اليوم التالي مباشرة لأي (فرح) يقام على أرض الملعب، حيث كان يصرخ شاتمًا إدارة النادي التي (بوظت) الملعب الذي أفنى فيه عمره، وكانت من أهم حسنات عم احمد (وهي كثيرة) أنه علمنا أن نظافة الملعب شيء أساسي، وأن اللاعب الذي يلعب في ملعب مليء بالورق والمناديل الكلينكس وبقايا فرح اليوم السابق لا يفرق شيئًا عن لاعبي الحواري والشوارع القذرة.

ظللت أحب عم احمد وروحه السمحة والأدب والمصالحة (رغم أنه لم يكن من كفر مصيلحة)، وظل هو يحترمني ويحبني –أو هكذا أظن– لا سيما وهو يراني أفتتح الدورات الرمضانية بقراءة القرآن الكريم، والمركز يكرمني بين الحين والآخر لحصولي على جائزة عن مسابقة دينية أو ثقافية، وظللت أتردد على المركز فترات متقطعة حتى بعد دخولي الجامعة لأسلم على عم احمد، ثم انقطعت فترة عن المركز عدت بعدها لأجد الملعب كالخرابة.

قلت لأحدهم: عم احمد كبر ومش قادر يرش الملعب؟

فقال لي: لاااااا يااااا عم.. عم احمد مات من أربع سنين.

البنات

في البداية تكون البنات مجرد كائنات أسطورية، قبل أن تتحول إلى كائنات غلسة نريد اللعب معها، ولكننا نأبى أن نطلب ذلك إليهن لاعتبارات ذكورية يزرعها فينا آباؤنا. وفي المراهقة يتحولن إلى الورد الذي نريد أن نشمه قبل أن نلقيه، ليصرن في الجامعة مثار قصص حب لا تكتمل أبدًا، وسرعان ما تتحول لكائنات رقيقة نحلم أن نخطبهن أو نربط حياتنا بابتساماتهن الجميلة، وبمجرد أن نتزوج نَحِنُّ إلى فترة الغلاسة أو شمة الوردة أو قصة الحب لكننا نكتشف أن الواقع مختلف..

مختلف تمامًا

في البداية تكون البنات مجرد كائنات أسطورية..

تقول لي أمي إن الولد ولد والبنت بنت، وهي الجملة التي صاغها الأخ سمير غانم بعبارة أكثر دقة حين قال قوله المأثور:

(الجنس الخشن خشن والجنس الناعم ناعم).

هكذا كانت البنات بالنسبة لي كائنًا أسطوريًا (بـدون شـنب)، فهن كثيرات البكاء واللعب معهن ممنوع ممنوع يا (ميدو).

لا أتذكر أول بنات عرفتهن لكنني أثق حتمًا في أنهن قريباتي.. فقد كانت معظم خلفة خالاتي وعماتي بنات.

من الآخر.. يخرب بيت كده.. أنـا أساسًـا الولـد الأول في عائلـة أبي، وآخر العنقود من الأولاد في عائلة أمي التي تقول لي إن الولد ولـد والبنت بنت.

عمومًا حاضر.

هكذا تراني غير مرتبط بأي نوع من الأحاسيس الطفولية تجـاه قريباتي، اللهم إلا أنهن قريباتي وفي مقام أختي دينا.

في سن الرابعة ألحقتني أمي بالحضانة الجميلـة الـتي يـسمونها (حضانة الشباب المـسلم)، وكانـت أمـي تراهـا مختلفـة لأنهـا (بتأكـل العيال) حيث كانت تعد وجبة قبل مجئ الظهر مكونة من الأرز الـذي لا طعم له وبعض الخضروات وبين الحين والآخر مهلبية أو رز بلبن.

الشيء الجديد في هذه الحضانة بالنسبة لـي كـان البنـات، وكنـت

أخجل من الحديث معهن، وهـو الأمـر الـذي ظـل يلازمـني حتـى يومنـا هذا؛ حيث أنني تربيت على أن البنت هي التي يجـب أن تبـدأ حـديثها معي وليس العكس، وهو الأمر الذي جعل زمـالاتي بالبنـات في الجامعـة مثلاً قليلة جدًا حيث لم أكن أبدأ الحديث معهن ولو حتى بصباح الخير.

في حضانة الشباب المسلم كنا نلعب سويًا ونتزحلق على الزحليقـة ويحضر لنا كل أسبوع مدرس موسيقى يعزف علـى الأوكورديـون ونغـني معه أغنيـة لا أزال أحفظ مطلعهـا حـى الآن "الفيـل أبـو زلومـة.. عامـل لحبيبته عزومة.. جايب لحمـة مفرومـة.. أكلـت وقعـت عيانـة"، وهـي أغنية علمتنا ألا نعزم أحداً على اللحمة المفرومة أبدًا.

لا أتذكر من بنات الحضانة أي بنت، لكنني أذكر أن أمـي فيمـا بعد استقربت حضانة أخرى هي حضانة (الرحمة) الـشهيرة بحـضانة الأستاذ فاروق، وهي واحـدة مـن تلـك الحـضانات الملحقـة بمـسجد مـن المساجد، ووقتها كنت أنام وأصحو على كابوس (فاطمة).

كانت فاطمة بنتًا سمراء مليئة الجسد وصوتها أجشًا رغم سـنها الصغيرة، وكانت تأتي الحـضانة دائمًـا بالمريلـة الكـاكي المـصنوعة مـن قماش (تيل نادية)، ولسبب لا أعرفه حتـى يومنـا هـذا كـان الأسـاتذة يجعلونها (رئيسة الفصل) وهو ما يجعل لهـا صـلاحية (الوقـوف علـى

الفصل) حيث تكتب أسماء العيـال الـذين يتكلمـون ويعملـوا دوشة للأستاذ الذي يخرج ليشرب سـيجارة أو للأبلـة الـتي ترغـي مـع زميلتها في الفصل الآخر لتحكي لها عن الشاب الذي ينتظرهـا كـل يـوم بعد انتهاء الحضانة، وكانت فاطمة تكتب اسمي دائمًا رغـم أنـي (مـا بعملش دوشة)، وفي الحصص كانت تنظر لي بين الحين والآخر نظرات غريبة فيها مـن التهديـد أكثـر مـا فيهـا مـن النظـرات الآدميـة لطفلـة صغيرة، وحين عرّفت فاطمة أن أمي كانت تعد لي ساندوتـشات الفـراخ انتابتها حالة هستيرية من الغضب غير المبرر —من وجهة نظـري علـى الأقل— لم تنته إلا حين أعطيتها (حتة) من الساندوتش.

فاطمة هـي الوحيـدة الـتي أتـذكرها الآن لأنـني وضـعت لهـا في الساندوتش ذات مرة شطة دون أن تعرف أمـي وبـالطبع دون أن تعـرف فاطمة، وكانت قضمة واحدة منها كفيلة بـأن تقـضي بـاقي اليـوم وهـي تصرخ وتبكي، وزدت أنا من رعبها حين أخبرتها بأنها (شطة هنـدي) طعمهـا لا يـذهب إلا بعـد أكـل الفلفـل الإسـود أو الكمـون أو التـبرز الفوري، وهكذا اختارت فاطمة أبسط الحلول فدخلت إلى الحمام، نحـن نـسمع حزقهـا الـشديد والعديـد مـن (يـح ح ح ح) و(حـاااااا) و(إإإإإإإإئئئئ)، وبعد ذلك اليوم قررت ألا أذهب إلى المدرسة ثانية.

في بيتنا كان يوجد هبة ونهى بنات (طنط حسنية) و(ديدي)، كما كانت (ديدي) بنت طنط سعاد أخت طنط حسنية موجودة ولا أنسى البنت الغلسة (آنذاك) ياسمين التي تسكن في الشقة المجاورة لنا، وكما كانت أمي تخاف عليّ من لعب الشارع فإنها منعتني من اللعب مع العيال في البيت بحجة أن كلهن بنات.

المرة الوحيدة التي لعبت فيها مع نهى (رغم أنها أصغر مني) حدفتها بالطبق الطائر (الذي هو غطاء صفيح ومدبب من غطيان علب السمنة) فأصابها في رأسها واستلزم الأمر ثلاث غرز وعلقة ساخنة لي مع تأكيد على عدم اللعب مع البنات مرة أخرى.

لم أعد ألعب مع البنات حتى أصبحت في الصف الرابع الإبتدائي حيث عدت من جديد إلى حضانة الشباب المسلم التي ألحقوا بها فصولاً للابتدائية، وكان من ضمن من يحضرون معي (رضوى) و(رحاب) وكانتا توأمًا متشابهًا لا يفرق بينهما سواي، والسبب ببساطة أنني كنت أحب رضوى وأكره رحاب، فرضوى تلعب معي وتقاسمني في كل شيء، وحين لمحتني حزينًا ذات مرة قبلتني قبلة لا يزال أثرها على جبيني حتى تلك اللحظة، أما رحاب فكانت وظيفتها الرئيسية جعل رضوى تبكي وبالتالي جعلي حزينًا... بعد ثلاثة أشهر من حبي –العيالي– لرضوى،

وحبها – الناضج– لـي اختفـت فجـأة في ظـروف غامـضة ولم أعثر عليها أبدًا حتى الآن، ويخيل لي أنني لو رأيتها الآن سأعرفها رغـم مرور ما يقرب من عشرين عامًـا وأنـني قـد أقـف أمامهـا لأسـألها (إنـتي رضـوى؟) فـإن كانـت إجابتهـا: أيـوه، سـأرد إليهـا قبلتهـا علـى الفـور وستعرفني فورًا لأنني سأطبعها في نفس المكان الذي كنت أقـول لهـا عنـه إنه يجعلها تشبه الملائكة الذين لم أرهم أبدًا خاصة حين تبتسم، قبـل أن أتركها وأختفي أنا الآخر ليقيني بأنها ستعتبرني مخبولاً، وثقـتي في أن هذا سيكون أكثر تصرف أحمق أريد فعله في هذا الكون إضافة لاعتبـارات أخرى تتعلق بأن رضوى التي أحببتها كانت في رابعة ابتدائي، كما أنني أخاف أن تخبرني بعدها أنها رحاب وليست رضوى.

في خامسة ابتدائي كنت على موعد مع منافسة حامية مع شـيماء في فصول التقوية فوق جامع الإخلاص. وقتها لم أكن أعرف إلهـام الـتي كانت معنا في نفس الفصل ولا أتذكرها كما لا تذكرني هي أبدًا رغم أننا تزاملنا حينها، ولو قال لي أحـد إنهـا ستـصبح زوجـتي فيمـا بعـد لمـا صـدقته، ربمـا لأن شـيماء الـتي كانـت تنافـسني دائمًـا علـى الأول في الامتحانات الشهرية التي كانت تجري كانت تمـلأ كـل تفكـيري رغـم أنها أطول مني بمراحل.

فيما بعد عرفت أن كل من أحببتهن (وأنا عيل) كن النماذج المتفوقة التي رأيتها أمامي أو تعاملت معها، كما علمت أنني كنت أجبن من أن أقول لأي فتاة إنني أحبها رغم أن الجميع يرون ذلك في عيني ويعتبرونه مثل الحقائق التي لا جدل فيها.

في الإعدادية ذهبت شيماء إلى مكان ثان. أصبحت تأخذ دروسًا خصوصية، ولم تعد تأتي لفصول التقوية. كنت أخجل من أن أحدثها في الشارع على أساس إني ولد مؤدب تربى على أن أي حديث مع البنات في الشارع يدخل في إطار (المعاكسة). المرة الوحيدة التي استطعت أن أحدثها قلت لها (إزيك يا شيماء) فأجابتني (إزيك يا محمد) واعتبرت وقتها أن هذا يوم حظي. لكن فيما بعد أدركت أنني (لسه عيل)، وأن أي شعور لي هو شعور مراهقة جاءت مبكرًا.

عرفت ذلك واستمتعت به للغاية مع القصص الرومانسية التي بدأت أقرأها في الإعدادية لإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي ومحمد عبد الحليم ونبيل فاروق في سلسلة زهور (السلسلة الوحيدة التي يجد الأب والأم حرجًا من وجودها في المنزل)!!

ظللت هكذا وأنا أحب الصفات الجميلة في كل من أعرفهن دون أن أحبهن شخصيًا. أحببت هند وولاء ووفاء وغيرهن من زميلاتي في

فصول التقوية، وتعلمت أن أكتب الخواطر وأنا في ثانية إعدادي حتى وقعت إحداها في أيدي والدي الذي ذهب بها إلى مدير المركز فخصص هذا الأخير حصة كاملة عن المراهقة، راح يسخر فيها من أي مشاعر تولد في هذه المرحلة العمرية.

وأنا في ثانوي أحببت فتاة كانت أول من تمنيت أن أتزوجها. صحيح أنها كانت تكبرني بعام تقريبًا، وصحيح أنها تلقت تعليمًا أرقى بكثير من هذا الذي تلقيته لكنني وجدت نفسي مشدودًا إليها ثم أدركت أني أحبها.

كانت عندي مشكلتين تواجه كل من يحب. الأولى: هي كيف أخبرها؟ والثانية: هي خوفي من رد الفعل.

هكذا كتبت أول قصيدة شعر في حياتي. صحيح أنها لم تكن شعرًا بالمعنى المفهوم لكني أجد نفسي فخورًا الآن حين أقول إنها كانت باللغة العربية الفصحى (لغتنا الجميلة) وإنها كانت تشبه أشعار فاروق جويدة التي كنت مدمنًا لها لدرجة جعلتني أحفظها وأستشهد بها في حصص البلاغة أمام البنات.

لكن رد فعل البنت أدهشني، فقد فهمت القصيدة التي ألقيتها أمام زملائنا —وهي منهم- في رحلة إلى حديقة الفسطاط، وتحدثنا

سويًا... وكانت أول فتاة أرتبط بها في حياتي.

كنا لا نتقابل إلا في المناسبات وحـديثنا في التليفـون غـير منـتظم حيث كان شرطًا أن تتصل هي بي والعكس غير صحيح.

هنا يمكنني أن أقول إنني لم أرتبط في حياتي بفتاة إلا وأنا أنوي الزواج منها بالفعل. حدث هذا مع الأولى ولم يحدث نصيب لأننا تركنا بعضنا البعض بعد سوء تفاهم غريب ومربك اتهمتني على أساسه أنـني قليل الأدب ولا أصلح لها لأنني شتمت شخصًا عاكسني في التليفون، ولم أكن أعلم بالطبع أنها صاحبة المعاكسة وأنه كان اختبارًا (لأدبي) بإيعاز من أحد المعارف المشتركين.

كنت صغيرًا بالفعل.. الآن أدرك ذلك وأنـا أراجـع تلـك الومـضات الـسريعة. صـغيرًا لدرجـة أنـني صُـدمت لفـترة في هـذه العلاقـة الـتي أوجعتني نهايتهـا الغريبـة، ولـو تـسألني عمـا خـسرته في هـذه الفـترة سأجيبك على الفور (الكشكول)... الكشكول الصغير الذي كتبت فيه كـل أشعاري وأرسـلته إليهـا لتحـتفظ بـه والـذي لم تعيـده هـي إلى الآن، ولا أعرف لماذا، ولا ما الذي فعلته به... الكشكول الصغير الذي جلست أنمق فيـه كلمـاتي بـالقلم الأزرق الجـاف، وأزركـش جوانبـه بـألوان مختلفـة وأرسم الورد والقلوب الصغيرة والعـصافير الـتي تبـدو وكأنهـا تـأتي مـن

بعيد على الهوامش وأحاول بين الحين والآخر أن (أعطره) بزجاجة البارفان الوحيدة التي اشتريتها وقتها من مصروفي الشخصي بما يقرب من 15 جنيه (نتحدث عن أواخر التسعينات) لمثل هذا الأمر، لم أسألها عن الكشكول حتى حينما أرادت أن نعود مرة أخرى بوساطة صديقتها الأقرب، وظللت مترددًا لفترة في قبول العودة إلى علاقتنا التي يمكن أن تسميها مثالية، لكنني اعتذرت عن العودة حيث ارتبطت بالفعل بأخرى كانت بالنسبة لي —ولا زالت— هي أجمل ما فعلته في حياتي.

لم نتقابل بعدها كثيرًا، ولم أعرف عنها شيئًا سوى وظيفتها التي لاتزال تشغلها إلى الآن ولم أحدثها في الهاتف إلا عندما توفي والدها فأصبحت هي ربة الأسرة التي تضمها مع أخ أصغر وحيد وأخت صغرى كانت على مشارف الجامعة، ولم أسألها قطعًا عن الكشكول الذي لا يزال يطاردني حتى الآن حتى لأشعر أنني كتبت فيه ما لم أكتبه، ولن أفعل، رغم يقيني بأن كل ما كتبته كان كتابة غير ناضجة لشاب مراهق كان يتخيل أن قصص الحب الأول الجميلة تنتهي كما في الأفلام العربية بالزواج، لم نحاول أن نلتقي أو يعرف أي شخص منا شيئًا عن الآخر واكتفينا بكلام عابر يرد إلى أسماع كل منا عن طريق

معارف كانوا مشتركين ولا أعتقد أنهم ظلوا كذلك، ولم أكن أريد لذلك أن يحدث. رغم كل ذلك لا أخفيك أنني —وعلى سبيل الفضول— كنت أود أن أعرف إلى أي حال ستصير وكيف ستصبح حياتها، لكنني — أبدًا— لم أسأل، إلى أن عرفت أنها فعلت آخر شيء يمكن أن أتوقعه، حيث ارتبطت بنفس الشخص الذي كانت ترتبط به صديقتها الأقرب في نفس الوقت، وأعتقد أن كل منهما خسرت الأخرى حتى بعد أن عادا إلى علاقتهما الطبيعية مرة أخرى، فمثل هذه الأشياء لا أعتقد أنها تنسى لأنها تطبع ببصماتها للأبد على في عمق الروح كما أنها لا تتميز بتاريخ صلاحية لأن تاريخ صلاحية الألم غير محدد.

بعد تعييني في الجامعة وتعيينها هي الأخرى في جامعة مماثلة وكلية مماثلة أيضًا اختفت تمامًا وكذلك فعلت أنا الآخر. اختبأ كل منا عن الآخر وذهب إلى حياته محاولاً تحقيق أسطورته الذاتية بطريقته.

كانت أسطورتي الذاتية أن أبدأ حياتي من جديد مع فتاة أحبها بحق، وأن أحسن الاختيار، وأن أثبت أنه لا تزال هناك قصص حب تنتهي نهايات سعيدة، وعلى مستوى العمل كنت —ولا زلت— أحلم أن أصير شيئًا جميلاً، وأن أحظى باحترام ومحبة من حولي، حيث أؤمن بأن محبة الناس من علامات محبة الله –عز وجل.

هكذا أحببت إلهام رغم أنني لم أكن أطيقها.

كانت إلهام زميلتي أيام الثانوية العامة في أحد المراكز التعليمية، وكنت لا أطيقها لأسباب غريبة تتعلق بكرهي لنموذج (الطالب الدحيح)، فرغم كوني متفوقًا والحمد لله –أو هكذا كنت في مجالات دراستي– إلا أنني لم أكن أتخيل أنه يمكن لكائن حي أن يجلس على مذاكرته بالساعات والأيام ويواصل الليل بالنهار ويكتب وراء المدرس كل ما يقوله ويحل كل الامتحانات السابقة وما إلى آخره من هذه الأشياء التي تميز العيال الدحيحة الذين يجلسون غالبًا في الدكة الأولى (أو البنش الأول في الكلية) ويطرقعون أصابعهم للإجابة على الأسئلة الصعبة، وكانت (إلهام) من هؤلاء.. ولعل ذلك يفسر لماذا التحقت هي بالهندسة ولماذا التحقت أنا بالآداب.. حبي لإلهام حدث في ظروف استثنائية عجيبة وكان السبب أقرب أصدقائي لي وقتها (مصطفى محمود) وأقرب صديقاتها وقتها (ولا داعي لذكر الاسم).

ارتبطنا ونحن نعلم أننا سنتزوج، وكنا نتفق على أن ندعو الله بذلك في كل صلاة، وقبل كل إفطار في شهر رمضان الكريم.

كانت مشكلتي هي أن أجد عملاً ثابتًا بعد التخرج، وبحسبة بسيطة وجدت أن العمل الوحيد الذي يمكن أن أجده بسهولة ويحقق لي

وضعًا مستقرًا ولو على سبيل البرستيج هو أن أكون معيدًا في الجامعة.

هكذا كنت الأول على دفعتي في الفرقة الأولى، ثم حافظت على ترتيبي ضمن الأوائل في باقي السنوات، حتى تم تعييني بالفعل في الجامعة. وكانت إلهام لا تزال في السنة النهائية من كلية الهندسة. وخلال عام كامل كنت أحاول أن أصير شيئًا مختلفًا وشخصًا (عليه القيمة).. من الآخر حد يشرف أي حد إنه يناسبه. وقبل إنهائها لمشروع تخرجها قابلت والدها في الشارع بعد صلاة الجمعة طلبت إليه أن أشرب معه الشاي. رحب بي الرجل وسألني عن السبب وحين أخبرته باسم ابنته، وحين أخبرته بعملي وطلبت مقابلته ذهبت وحدي منعًا لأي إحراج من أي نوع لأبي وأمي، وكنت ثابتًا وواضحًا ومباشرًا، وكانت أقوى مميزاتي أنني أحب ابنته وكان ذلك جليًا له يوم جلس معي.. وبعد أن سأل عني وافق على الخطوبة.

بعد فترة خطوبة سنتين كاملتين تزوجت من الفتاة الوحيدة التي أحببتها والتي شعرت أنها تحبني أضعاف ما أحبها، والتي طالما حلمت بأن تكون أمًا لأولادي.

استجاب الله لدعواتنا وذلل كل العقبات من كل الأنواع ومر الموضوع بسلام.

مر الموضوع رغم محاولات عدد من بنات الدفعة الأولى التي قمت بالتدريس لها كسب ودي، على اعتبار أن زواجهن من المعيد الشاب يضمن لهن النجاح بتقدير.

مر الموضوع لأن الله أراد أن تكون النهاية سعيدة..

وقد كانت.

إلى هنا يمكن أن أنهي حكايتي مع البنات لأن أي شيء يعقب زواجي سيغضب إلهام كثيرًا..

وأنا لا أستطيع أن أغضبها..

هيييييهيهيهيييييييه .. (ضحكات شريرة متقطعة)!!

مدرسة الظاهر الثانوية..
إصلاح وتهذيب!!

(1)

في الإعدادية كان الجميع يتوقعون لي مجموعًا كبيرًا يكفل لي دخول مدرسة خارج إدارتي التعليمية في الثانوية العامة، فلم يكن لدينا سوى مدرسة واحدة في إدارة الشرابية والزاوية التعليمية، وهي مدرسة (الظاهر الثانوية بنين) وفي أقوال أخرى (الظاهر إصلاح وتهذيب) وفي روايات ثقات (الظاهر للصياعة العامة)، فقد اشتهرت المدرسة بعدد من طلابها المتميزين الذين حفروا اسمها بحروف من نار وسط مدارس المنطقة التعليمية، لا سيما بإنجازاتهم المتمثلة في الخناقات والمعارك والسطو المسلح على مدرسة البنات المجاورة لنا.

كان أبي يحلم لي بأن أدخل مدرسة التوفيقية في شبرا حيث مصنع الرجال وأوائل الثانوية العامة، وكنت أحلم بمدرسة إسماعيل

القباني في العباسية، حيث المدرسة العريقة المجاورة لكلية الهندسة والمواجهة لمعهد عبده باشا الأسطوري الذي نسجوا عنه قصصًا مفادها أن إحدى رحلاته عاد منها الطلبة والطالبات بحوالي عشرة حالات حمل، وهو ما تأكدت من عدم صحته بعد ذلك حيث شغلني هذا الأمر لفترة.

كان دخولي مدرسة التوفيقية يعني أنني سأكون من الأوائل — هكذا أكد أبي— ودخولي مدرسة اسماعيل القباني يعني زيادة احتمالات دخولي كلية الهندسة —هكذا كنت أتخيل— أما دخولي مدرسة الظاهر الثانوية يعني دخولي الجيش (بعد العديد من التحقيقات اكتشفت أن أبي خريج الظاهر الثانوية وأنه دخل الجيش بعدها)

لكن كل ذلك كان مرهونًا بمجموع الإعدادية الذي ذهب بي — كما توقع الجميع منكم الآن— إلى مدرسة الظاهر الثانوية، ووقتها لم أكن أنام حيث اعتبرت نفسي —واعتبرني أساتذتي في الإعدادية— فاشلاً ومخيبًا لآمالهم العظيمة فيّ، ووصل الأمر إلى أنني فكرت جديًا في عدم دخول الثانوية العامة ودخول مدرسة الصنايع الشهيرة (مدرسة جلال فهمي) والتي تكفل لأوائلها عملاً فوريًا وتكفل لتلاميذها عملاً مؤجلاً بسعر زهيد، وتحدثت في الموضوع مع أبي الذي قال لي "اللي انت

عايزه" فلم يكن يحب أبدًا أن يملي علي أي شيء يتعلق بدراستي أو مجال عملي، وبعد قليل من التفكير قررت الذهاب إلى مدرسة الظاهر الثانوية للبنين.

(2)

صدمتي الأولى في مدرسة الظاهر في اليوم الأول تتمثل في فصل 7/1 الذي جاء فيه اسمي، وكنت أعتبر –كما سمعت دائمًا– أن فصول المتفوقين هي 1/1 و2/1 فقط لا غير، ولم أستمر أكثر من ثلاث حصص حزمت حقيبتي بعدها، ونزلت للأستاذ عبد النبي الأخصائي الاجتماعي وأنا أقول له إن عندي مشكلة نفسية تتعلق في أنني أريد الانتقال إلى 1/1.

نظر لي الإخصائي بدهشة وسألني عن مهنة والدي فأجبته ضابط بالقوات المسلحة، ثم سألني عن مجموعي فأخبرته (215)، فقال لي في ود وتهذيب إنني يجب أن أتأقلم على فصلي هذا حيث من المستحيل أن ينقلني منه، ونصحني بالرضى بحالي والاجتهاد في مذاكرتي، ثم دق جرس الفسحة فخرجت من مكتبه إلى (الحوش) لأفاجأ بصدمتي الثانية التي تمثلت في عصابة بسيوني لخطف السندوتشات، وهي العصابة التي كان يقودها (بسيوني عز الرجال).

والذي كان مثار رعب الناظر نفسه بطوله المهيب وعرضه الذي يذكرك بمتوازي الأضلاع في دروس الهندسة، وكان بسيوني يتزعم عصابة من الراسبين في تالتة ثانوي أدبي، ويقودهم في غارات على ما لذ وطاب من سندوتشات الطلبة المستجدين، حيث كان بسيوني يخطف الكيس نفسه بما يحتويه من ساندوتشات أو عصير أو مخلل، وبغض النظر عن نوع الطعام حيث كانت (نفس) بسيوني حلوة وقابلة لأكل الكشري بالفطير بالبسبوسة والجبنة أم قوطة أو الشيدر إضافة لسندوتشات القشطة بالعسل التي كان يحضرها بعض المرفهين، وكان يوم سعد بسيوني يوم يجد أحدهم ومعه ساندوتشات شاورمة أو فراخ بانيه أو (مفتأة).

في هذا اليوم ذهبت إلى والدي وأخبرته بأنني لا أريد أن أكمل في هذه المدرسة لأن كل أصحابي في 1/1 وأنا في 7/1 رغم إن مجموعي يجيب 1/1!!

في اليوم التالي ذهب والدي معي إلى المدرسة وقابل المسئول عن كشوفات القوائم (كان اسمه الحاج صالح) وقال له إنني ولد مجتهد وإنني صحفي في مجلة سمير وسأفيد المدرسة لو التحقت بـ1/1 فنظر لي الحاج صالح مبتسمًا قبل أن يضيف اسمي بمنتهى البساطة واليسر إلى

فصل 1/1.

أخذني أبي من يدي، وصعد معي للفصل الذي اعتاد طلابـه علـى أماكنهم وحين لمحت مكانًـا شـاغرًا وتوجهـت للجلـوس إليـه تزحـزح الطالب ليمنعني ويقول لي إن هذا المكان يخصه وإنني يجـب أن أبحـث على مكان آخر، وهـو مـا استفز والـدي كـثيرًا ومـا جعلـه يـصيح فيـه ويعطيـه دروسًـا في الأخـلاق انتهـت بـالجلوس في الدكـة الأولى بجـوار محمد يسري وسيد ملاك.

يسري كان أحد أصدقاء عمري حيـث يـسكن في البلـوك المجـاور وكنت ألعب معه خلسة في الشارع إذا أرسلتني أمي لشراء أي شئ لهـا، وكان يزاملنا كثيرًا تامر شيكولاتة الأسمر الجميل الذي لا يزال صديقي حتى يومنا هذا.

كان يسري ملقبًا بلقـب مهـم يـصعب ذكـره وإن كانـت النـسخة المحدثـة منـه هـي مـا أطلقهـا عليـه سـيد مـلاك الـذي صـار يناديـه بـ(شاكمان) نظرًا لأن عوادم محمد يسري تشبه كثيرًا عوادم أي شـكمان صديء يحترم نفسه في الشكل والتأثير والرائحة!!

زاملـت يـسري في الابتدائيـة والإعداديـة والثانويـة العامـة وحضرته من بداياتـه حـين كـان يـصرف تحويـشته علـى التيـشيرتات

المرعبة التي علمنا الصفطي شراءها من مصر الجديدة أو على شرائط مايكل جاكسون أو على قصص رجل المستحيل.

أما سيد ملاك الذي ظننته قبطيًا من اسمه فقد اتضح أنه ليس كذلك وأن اسمه هو سيد أحمد سيد، وأن اسم سيد ملاك أطلقه على نفسه لزوم القافية حيث كان يملأ الفصل، بل المدرسة كلها، بالعبارة الشهيرة: ما تخافش م الهلاك.. خاف من سيد ملاك!!

في فصل 1/1 اكتسبت أكبر خبرات حياتي في التعامل مع البشر حين عرفت كل أصنافهم متمثلين في الطلبة والأساتذة الذين قابلتهم هناك، والذين جعلوا فصل 1/1 فصل المشاغبين وليس فصل المتفوقين.

كان الولد الذي منعني من الجلوس هو (مصطفى) ابن (عم صالح) بتاع الفول، وهو واد جدع جدًا بالمناسبة لكنه – كأي مراهق في 1/1– كان حاسس بنفسه وقتها. فيما بعد سيكون لمصطفى 16 لقبًا نتداولهم فيما بيننا وكانت لي براءة اختراع 12 لقبًا منهم على الأقل، وهو ما كان يصيب مصطفى بحالة هستيرية لا سيما حين ندعوه بـ(مصطفى أنكش) الذي سرعان ما تحول إلى (مصطفى هلاهوطة) إضافة إلى (فولة) و(قدرة) و(كبشة) و(عبوطة) بتشديد الطاء وغيرها من الألقاب التي صورناها ووزعناها على الفصول المجاورة بتحريض

من السوسة المتحركة محمد شعبان.

عرفت محمد شعبان الذي كان يجلس بجوار(وائل سعيد) في الدكة الثالثة، وكان شعبان سوسة خفيف الظل، وهو الذي تسبب في عقدة (محمد سلامة) التي لابد وأنها رافقته إلى الآن، فقد كان شعبان بمناسبة وبدون مناسبة يصرخ فجأة: محمد سلامة يا أستاذ، وينظر الأستاذ له بدهشة فيقول: ماله محمد سلامة؟ فنرد جميعًا في أصوات متداخلة: هو محمد سلامة يا أستاذ، هو اللي عمل كده، هو ف كل حصة يعمل كدة مع كل الأساتذة، وأمام الضغط الجماهيري من حوالي 70 طالب كان محمد سلامة يتلقى التهزئة السقع على أشياء لم يفعلها، وربما أشياء لم تحدث أساسًا.

هكذا صار محمد سلامة هو شماعة الفصل فلو نسينا عمدًا مفتاح قفل باب الفصل حتى نأخذ الحصة الأولى ألعاب في الحوش يكون السبب هو محمد سلامة، ولو حضر أحدهم متأخرًا عن الحصة فقد كان برفقة محمد سلامة –رغم أن محمد سلامة في الفصل– ولو ضربت مجاري الحوش فقد تسبب فيها محمد سلامة، الذي انفجر ذات مرة في الفصل كله وراح يضرب كل من يقابله مردودًا: أنا هوريكم محمد سلامة هيعمل إيه. وحين جاء مدرس الدور ليرى سبب الدوشة في الفصل قلنا جميعًا

في صوت واحد: محمد سلامة يا أستاذ قبل أن ننفجر في الضحك، وأولنا محمد شعبان صانع الأسطورة السلامية!!، على أن محمد شعبان كان وغدًا حقيقيًا، وأذكر أننا اتفقنا سويًا على أن أغششه سؤال النحو بالكامل في الثانوية العامة مقابل سؤال الاختياري في امتحان الانجليزي وكانت عليه 16 درجة... نفذت الجزء الخاص بي، وشكرني شعبان بعد الامتحان واتفقنا سويًا على أن خبطة مني بالقلم على الدكة معناها أنني أريد أن أعرف السؤال الأول، وخبطتين الثاني وهكذا، ولكنه نبهني إلى أن الأفضل أن أناديه بصوت هامس على أن يرد علي همسي بإشارة من يده تدل على رقم الاختيار الصحيح، لأنه سيكون من الصعب أن أطلب السؤال العاشر أو السادس عشر بطريقة الخبط بالقلم على الدكة والتي ستتكفل بإلغاء امتحاني من قبل المراقب.

اقتنعت بالأمر وهمست لشعبان: محمد.. محمااااد.. محمد يا شعبااااان.. يالا يا شعبااااان..انت يااااااض. ياض يا ابن الـ....، ولم يرد شعبان الذي صدّر العبيطة، وعكف على الامتحان لينهيه ويخرج بعد نصف الوقت، وبعد الامتحان ذهبت إليه غاضبًا فبادرني بغضب أكبر: ده صوت ده تناديني بيه.. فين صوتك راح فين.. أسمعك ازاي أنا دلوقت يا بني آدم.. مش عيب لما تبقى مش عارف مصلحتك

وتوشوش روحك. الله يسامحك وترتني على الفاضي وانا خايف عليك.. آديني ما عرفتش أحل بسببك، ولم أرد على شعبان الذي طلع الأول على الفصل في الانجليزي..

والعربي أيضًا.

(3)

في 1/1 كان زملائي مشاغبين بالفطرة، وكان الأساتذة يستحقون المشاغبة بالفعل، وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها من مدرس محترم مربي أجيال ألفاظًا بذيئة وهو يشتم أحدهم بالأب أو بالأم أو حتى يشتمه شخصيًا على طريقة العيال الصيع في الشارع.

كان من بين شياطين الفصل حاتم البدري الذي كان يصدر أصواتًا يصعب تخيلها في وسط الحصة، وكان المدرس يوقف الشرح وينظر ناحية حاتم البريء الذي يتظاهر بالبراءة الشديدة ولا يجرؤ أحد على أن يفتن عليه، وحين ينظر المدرس ناحيته ينطلق نفس الصوت من مكان آخر في الفصل ثم مكان ثالث فرابع فخامس، والمدرس الغلبان زائغ العينين يحاول ملاحقة العيال ولا يستطيع فعل شيء سوى شتيمة الفصل كله، قبل أن ينهض أحدهم ويقول له: لو سمحت يا أستاذ ما تجمعش.. أنا مش جاي هنا عشان اتشتم.. أنا جاي اتعلم، ويكون

رد المدرس هو ابتـزازه ومـساومته ودعوتـه للاعـتراف علـى زميله الذي أصدر الصوت حتـى يقـنن الـشتيمة في شخـصه، لكننـا كنـا نثور بالتدريج وكل منا يردد: وانا كمان يا أستاذ.. وانـا كمـان.. وانـا كمان، وتنتهي الحصة بعدم شرح الدرس وبخروج المدرس وقفـاه يقمـر عيش. وفي حصة الدين كنا ننضم إلى 2/1 وكـانوا يماثلوننـا في المـشاغبة فيتحول الأمر إلى قوة ضاربـة ضد الأستاذ أبو الحسن الذي يدخل الفـصل لـشرح الـدين، فيفقـد أعـصابه في وسـط الحـصة وهـو يـصرخ بلهجتـه الصعيدية الغريبة: أنا هوريكم يا أوصاخ. يقـول أوسـاخ بالـصاد ولـيس بالسين فنضحك على طريقته فيزيده الأمر استفزازًا، ويظل يـشتم فينـا لتصبح الحصة حصة شتيمة وليس حصة دين.

المرة التي قررنا فيها أن يدرس لنا الدين مدرس آخر غـير أبـو الحسن، أعددنا العدة وكنا في منتهى الأدب والأخـلاق فلـم نـشاغب ولم نغضبه، وهو ما فاجأه بشدة، فراح يمدح فينا وهو يشرح لنا كيف أننـا لو احترمنا أنفسنا هكذا دائمًا سيكون في مصلحتنا.

وشرح أبـو الحـسن أول حـصة مكتملـة في حياتـه في هـذا اليـوم وخرج فرحًا مختالاً دون أن يلحظ الـذيل الـورقي الـذي علقـه لـه الـواد ابـراهيم في بنطلونـه مـن الخلـف وقـد كتبـت وراءه كلمـة (أنـا زعـيم

الأوصاخ)، ويومها أصيب أبو الحسن بنوبة هياج وصار أول مدرس دين يسب الدين للفصل واللي فيه، وكانت آخر حصصه في المدرسة وربما في وزارة التربية و التعليم بأكملها.

من ضمن الأساتذة الذين لن أنساهم كذلك أستاذ عبد الفتاح شنبو بتاع الكيمياء، والذي كنا السبب في إطلاق اللقب عليه بعد أن قص أحد جوانب شاربه أكثر من الجانب الآخر حتى أنه ليذكرك حتمًا بشارلي شابلن، وكان سامح شيبوب ومحمد صابر يصرخون من آخر دكة بصوت رقيع ولا أجدعها مومس في شارع جامعة الدول: يا شنبووووووو. فينظر خلفه ويقول وهو يبربش: عيييييب يا اولاد.. ما حدش يعمل الصوت ده تاني.. اتكلموا عادي زي البني آدمين واللي اسمه شنبو يرد!!!

لكن كله كوم والحاج كوم آخر. كان الحاج هو مدرس الانجليزي العتيد الذي لا يحب أن يناديه أحدهم بـ(مستر) بل بالحاج لأنه رجل حج بيت الله وعمل في السعودية لفترة من الزمن كفلت له زبيبة صلاة محترمة على جبهته، وعددًا كبيرًا من الأحاديث والفتاوى التي كان يلقيها علينا طوال نصف ساعة قبل أن يختصر الدرس في الربع ساعة المتبقية، وهو نفس ما كان يفعله في الدروس الخصوصية، وكان يحكي لنا حكاية دائمًا عن إعجاب السعوديين به والذي دفع أحد طلابه هناك

بأن يقول له: والله ما قصرت يا أستاذ.. عفريت والله يا أستاذ.. عفريت. وكان الحاج قصيرًا وبكرش، فإذا شب ليطول السبورة بانت صرته فاعتبرها عورة فكف عن الكتابة وهو يلوح بالعصا ليسأل الطلاب، وكان يبدأ في الغالب بالمسيحيين مثل رفيق رأفت ووفيق غطاس وروماني خليل وأسامة مسعد الشهير بمندل والواد إسحاق صليب، وغالبًا كانوا لا يجيبون فيضربهم بشدة، أما في حالة إجابتهم فكان يسألهم سؤال آخر ثم ثالث فرابع حتى يصل معهم لسؤال لا يجيبون عليه فيضربهم!!!

كل ذلك لا يمنع من وجود أساتذة أعتقد أنهم عباقرة بالفعل مثل الأستاذ عبد الهادي مدرس الأحياء الذي كنا نهرب من حصصنا لنحضر له ونستمتع بشرحه الممتع، إضافة للأستاذ ماهر صليب في الفيزياء والأبلة نادية والأبلة ليلى في الكيمياء وغيرهم من المدرسين الذين تشعر معهم بمتعة الدراسة، ولعل هذه هي مشكلة التعليم الأساسية في مصر حيث لا يوجد أحد يحببك في التعليم بل على العكس يقرفك في عيشتك.

لكن الكنز الحقيقي الذي وجدته في أساتذة ثانوي كان الأستاذ عبد المنعم مكي، وهو مدرس لغة عربية شهير رفض أن يكون موجهًا أو وكيل وزارة حتى لا يترك تدريس اللغة العربية التي يعشقها،

والأهم من ذلك أنه قام بالتدريس لشخص لم أكن أتوقعه..

والدي.

هكذا كانت فرصة لكي أسأل الأستاذ عبد المنعم مكي عن أبي وعما إذا كان (شاطر أم بليد) أيام دراسته، وكان الأستاذ عبد المنعم مكي يضرب كفًا بكف وهو يردد عبارات استهجان عن (جيل آخر زمن) الذي يريد أن يبتز أهله، بينما كنت فقط أريد أن أعرف ما كان عليه أبي من مستوى حتى لا يطالبني بالمزيد.

(4)

في أولى ثانوي كانت عندي موهبة اكتشفوها بالصدفة ألا وهي موهبة تقليد المدرسين. فلم أكن أقلد الممثلين ولا المطربين، وإنما المدرسين بحركاتهم وسكناتهم ولزماتهم اللفظية التي تتكرر بين الحين والآخر، وهو ما كاد يتسبب لي في كارثة حين رآني وكيل المدرسة خلسة وأنا أقلده (وكان اسمه الأستاذ مكرم) حيث نكشت شعري مثله ورحت ألوح بالعصا الطويلة التي تفوقه طولاً مثل المجاذيب وأنا أردد: اطلع على فصلك يا حيوان.. اطلع على فصلك يا حيوان، والحق يقال إن الأستاذ مكرم لم يؤذني، بل على العكس ظل يضحك مطالبًا إياي بأن أقلد باقي المدرسين.

في تانية ثانوي كنت رئيس الفصل، وكدت أفصل من المدرسة حين كتبت عن الوجبة المدرسية في مجلة سمير، وقلت إن المربى في أيدي المدرسين، وإن توزيع الوجبة المجانية ليس عادلاً حيث يستولي عليها عدد من المدرسين أصدقاء مدرسة الزراعة التي تتولى استلام الوجبة وتوزيعها، والعجيب أنني كنت أشكر في أحد المدرسين في نفس المقال، وبدلاً من أن يشكرني أخذ المقال وذهب به إلى المدير الذي صعق لما رآه، واستدعاني وأجبرني على كتابة تكذيب، وهددني بالفصل وهو يدعو عليّ أمام زملائي ويقول إنه سيدعو عليّ في كل صلاة وهو أمر مشابه لما فعله أستاذ المجال الصناعي الشهير بالأراجوز الصايع لكثرة ما يشبه أراجوز المناطق الشعبية بما يثيره من ضحك الناس ببذاءته التي لا تخفى عن أحد، وصار الجميع يهددوني بين الحين والآخر وقد منعوني من قراءة القرآن الكريم في الإذاعة المدرسية، وكاد الأمر يتطور لولا أن وصل الموضوع للوزير من خلال مجلة صباح الخير والكاتبة الكبيرة ناهد فريد، وفي يوم وليلة انقلبت الأوضاع 180 درجة حين فوجيء مدير المدرسة والمدرسين بلجنة من مكتب وزير التربية والتعليم للتحقيق فيما حدث معي. وقتها وافق زملائي في الفصل على الشهادة معي دون خوف وهم يغنون أغنية الريس "الله

معاااك ومعاااك قلوبنا.. ونروح فداااك..ما انت حبيبنا" وهو ما أثـر في كثيرًا حتى كدت أرشح نفسي لرئاسة الجمهورية ذاتها.

جري نحوي أستاذ المجال الصناعي كالفأر المذعور وهـو يـردد: انـت حبـيبي يـا محمـد.. أنـا مـا عملـتلكش حاجـة.. قـل لهـم بـأة في التحقيق، وصرت حديث المدرسة بعد أن تم خصم وإنذار كل من شـارك في المهزلة التي كان يمكن أن تمر لـو لم يعيروهـا اهتمامًـا لكـن غبـاؤهم كان أكثر سيطرة على الموقف.

فيما بعد صارت لي في المدرسة شنة ورنـة، وكـف الأسـاتذة عـن معاقبتي، واعتبرني العيال بطلاً شعبيًا، واستمتعت بـالأمر وأنـا أقـوم بدور المخطط للكثير من العمليات ومنها مثلاً عملية الوجبة حيـث كـان عدد الفصل 50 حضر منه 25 فقط، ولم أكتب الغائبين في ورقة الغيـاب وهكذا عاد كل طالب بوجبتين إلى منزله بدلاً من وجبة واحدة.

أما عملية تامر شيكولاتة فقد كانت مختلفة.

كان تامر قد التحق بالقسم الأدبـي، واعتـاد علـى أن يجـيء لنـا على باب الفصل بعد كل فسحة وهو يقول: يا فصل ما فيكـوش راجـل، قبل أن يجري خوفًا من أن نفتك به.

في هذا اليوم التاريخي في حياة تـامر –وفي حيـاة كـل مـن شـارك في

- العملية— جلست وحدي في مكان ظاهر وسط الفصل، بينما اختبأ هاني شخصية (كائن حي معادل لإبليس حين يغضب) وسامح فرخة (صاحب أرفع أقدام في التاريخ) وغيرهم من باقي العصابة، وبمجرد أن دخل تامر الفصل ليلقي إهانته الأثيرة، وبمجرد أن قال: يا فصل ما فيكووووش..... كان هاني شخصية يبرز من العدم وهو يشده إلى الداخل، بينما سامح فرخة يخرج ليغلق الفصل عليه بالقفل، فيما تجمع الذئاب حول تامر الذي بهت وهو يقول: إيه ده.. أنا بهزر.. أنا بهزر، وظل يقلب علينا الدكك وهو يظن أنه يخيفنا إلى أن انتهت الدكك تمامًا وهجمنا عليه هجمة رجل واحد (حتى يتفرق دمه بين الفصول) قبل أن نجبره على خلع هدومه، ليعود إلى فصله —بعد العديد من المفاوضات— بالأندر وير.

(5)

في الثانوية العامة لم نكن نحلم بأكثر من النجاح ودخول أي كلية والسلام، وكنا نشك في ذلك إلى أن أقنعنا أحمد عباس الأخصائي الاجتماعي الذي التحق بالمدرسة حديثًا بأن الحافز القوي هو الذي سيجعلنا نلتحق بالجامعة، وضرب لنا مثالاً يمكن أن نحتذي به بأن يكون حافزنا لدخول الجامعة هو مصاحبة البنات والمشي معهم،

وبالفعل نجح الفصل كله ودخل الجامعة.

(6)

منذ عدة أشهر ذهبت للمدرسة بعد أن تزوجت لا لشئ إلا للبحث عن ذكرياتي الجميلة. بدا لي الحوش الواسع وكأنه صغر فجأة رغم أنه بنفس مساحته، وأحسست بالشيخوخة وأنا أنظر لطلبة الثانوي وهم يجرون خلف بعضهم البعض.

(7)

فيما بعد كف محمد يسري عن سماع مايكل جاكسون، وبعد تخرجه في كلية التجارة جامعة عين شمس التحى، وصاروا ينادونه بالشيخ محمد. خرج تامر شيكولاتة من بنها بعد دراسة أربع سنوات في كلية التجارة، وظل يعافر مع الدنيا الغريبة حتى أصبح محاسبًا ببنك فيصل الإسلامي. وائل سعيد صار ضابطًا بأمن الدولة. أما محمد شعبان فقد أصبح مدرسًا للغة الإنجليزية، وسمعت من مصدر غير موثوق به إطلاقًا أن طلابه يحاولون إقناعه بأن الصواريخ التي تلقى عليه وسط الحصة من واد مفعوص اسمه محمد سلامة، الذي أعتقد أنه الآن موجود حتمًا في جوانتانامو.

وأموت..

في الإعدادية كنا نلعب الكرة في الشارع قبل دخول المدرسة، وكان أحرفنا هو صلاح الذي يلعب جيدًا ويقف جون بنفس كفاءة لعبه الجميل. كان صلاح يأتي للمدرسة دائمًا بالترنج الكحلي الكالح من كثرة لعبه للكرة، وكنت أتصور أن صلاح يرتديه لزوم لعب الكرة لولا أنني عرفت فيما بعد أنه الوحيد الذي يرتديه وأنه لا يبالي بأن يضربه أحد المدرسين لأنه لم يرتدي الزي الموحد للمدرسة، لأنه في كل الأحوال يعيش بنفس الترنج الذي يغسله يوميًا، وطوال عامين كاملين لم نكن نرى صلاح سوى بهذا الترنج.

في هذا الصباح الذي لا أنساه لم يحضر صلاح. وكان اللعب ماسخًا، والسيارات التي توقفه كثيرة، والشمس غائبة، والأرض التي نلعب عليها مليئة بالقمامة، وحتى حوش المدرسة كانت مجاريه ضاربة.

في هذا اليوم عرفت أن صلاح مات.

وقعت عليه العشة الخشب التي كان يعيش فيها عند مزلقان السكة الحديد، ولم تستطع الألواح الخشبية الرخيصة مقاومة الهواء فسقطت على نافوخه ومات.

هكذا مات.

بكل بساطة.

بكل سهولة ويسر.

لن يلعب معنا ثانية، ولن نراه مرة أخرى، ولن يضربه أحد من المدرسين عقابًا له على عدم ارتداء الزي.

تجاهل الموت عم حجازي بياع الآيس كريم الذي يسعل دمًا بين الحين والآخر، وتجاهل عشرات العواجيز الذين يحرقون صدورهم بسجائرهم رغبة منهم في الموت البطيء، وتجاهل عمال السقالات الذين يقفون على ارتفاع عشرات الأدوار في الهواء وانتقى صلاح... في تلك الفترة صارت الكوابيس تهاجمني، وسؤال واحد يؤرق منامي ويجعلني مرتبكًا زائغًا وسط كل من حولي: ماذا لو مات أبي الآن؟

أحببت أبي كثيرًا، ولم أتخيل أن أمي قد تموت، أو أن أختي

الوحيدة قد تصدمها سيارة مسرعة، ولـذلك خفـت أن أفقـده وأن أحمل لقب يتيم.

كانت أمي تدعو علـى نفـسها دائمًـا حـين تتـشاجر معـي وهـي تقول: ربنا ياخدني من وشكم عشان تعرفوا قيمتي. وكأن قيمـة النـاس لا تُدرك إلا بعد أن يموتوا.

تأملت المعنى ووجدت أن هذه –للأسف– هي الحقيقة.

نحن لا نعرف قيمة مـن نحـب إلا حينمـا نفقـدهم ويـصبح مـن المستحيل التواصل معهم.

في الثانوية العامة حدث موت ثان هزني بشدة. كان محمد أحمد عبد النبي ضئيل الجسد، باسم الوجـه، خلـوق، يلقـاك دائمًـا بالـسلام عليكم ويودعك بـ(أشوفك على خير). وحين حدثت لي مشكلة كبيرة في الثانوية العامة كدت أفصل بسببها مـن المدرسـة –أو هكـذا هـددوني– أخبرني أن والـده يعمـل في أخبـار اليـوم، وأنـه سيـساعدني لـو تجـرأ أحدهم على إيذائي. في تالتة ثانوي ذهب محمد إلى فـصل آخـر ولم أعـد أراه بانتظام إلى أن عرفت أنه مات.

كان في الحمام يستحم، وزاد بخار السخان الغاز عن الحد الـذي يستطيع صدره الصغير أن يتحمله فاختنق ومات.

هكذا مات. في لمح البصر. في لحظة واحدة؛ علّمنا أساتذة الدين وشيوخ الجوامع أنها أصعب من عمرك كله وقالوا لنا إن الخبيث روحه تقتلع من أظافر قدميه وإنها تخرج بمنتهى الصعوبة في عذاب يفوق كل عذابات الدنيا، بينما الطيب سيحدث له كذلك نفس الألم لكن بصورة أقل.

كنت أرفض تصديق هذا؛ فإذا كان الخبيث سيموت هكذا فما ذنب الطيب في ألمه الذي سيحدث له؟ أخبروني أن ذلك تكفيرًا لسيئاته بدلاً من أن يحاسب حسابًا شديدًا.

في تلك الفترة قرأت رواية نائب عزرائيل ليوسف السباعي. وهي تحكي عن شخص مات عن طريق الخطأ حيث تشابه اسمه مع شخص آخر كان عزرائيل ينوي قبض روحه، وتصادق صاحبنا مع عزرائيل الذي شعر بغلطته لدرجة أنه جعله نائبه في قبض الأرواح لانشغاله بموعد مع إحدى الحور العين، وهكذا أصبح صاحبنا هو الذي يقبض الأرواح بدلاً من عزرائيل.

دعك الآن من مفاهيمك الفلسفية والحلال والحرام وفانتازية الرواية، وركز معي في معنى هام وضعه يوسف السباعي في روايته. المعنى يقول إن الله سبحانه وتعالى رحيم وجميل، وإنه —عز وجل— لن يعذب أحدًا على الإطلاق، وإنما يهدد بالعذاب لعل الدنيا تصبح أكثر

رحمة ولينًا مما هي عليه، ويقول عزرائيل في الرواية لصاحبنا إن الناس يفعلون ما يفعلون بأنفسهم وبمن حولهم من خطايا وآثام وأذى وخبائث وهم يعرفون أن هناك عذاب، فما بالك لو عرفوا أنه ليس هناك عذاباً من أي نوع!!!

أعجبتني النظرية رغم لا معقوليتها ورغم عدم استنادها إلى أي ثوابت في أي دين، ثم هاجمني سؤال آخر:

هل نخاف من الموت نفسه لأنه سيُغيب من نحب عنا ويغيبنا عمن نحب، أم أننا نخافه لأننا لا نعرف ما بعده؟ ولأن ثوابتنا الدينية والفكرية تؤكد أن هناك حساب، ولأن شيوخنا في معظم المساجد يؤكدون بين الحين والآخر، وبشكل مباشر أو غير مباشر أننا في النار وبئس المصير؟

لم أعرف إجابة شافية خاصة والموضوع يقتلني بين الحين والآخر.

كيف سأموت؟ ومتى؟ وهل سأكون مستعدًا؟ وهل من الممكن أن أموت شهيدًا؟.

هل أموت على سجادة صلاة أم على سريري أم في مكان يغضب الله –عز وجل– والعياذ بالله؟

هل أموت مريضًا أم في حادثة؟

هل أموت بالسكتة القلبية أم بانخفاض أو ارتفاع ضغط الدم أم بسبب سيارة مسرعة؟

هل أموت في البحر غرقًا أم في الجو بعد سقوط طائرة أم تراني أموت مختنقًا أو محترقًا في حريق كبير؟

هل أموت (موتة ربنا) أم يقتلني أحدهم وهو يحاول ابتزازي للحصول على أموالي أو الانتقام مني لشيء أو لآخر؟

هل سأموت قبل من أحب أم بعدهم، فإن كان قبلهم كيف سيبدون وكيف سيتحملون وماذا سيفعلون ؟ وإن كان بعدهم فكيف سأتحمل أن أراهم يموتون قبلي، وكيف يمكن أن أراهم يبتعدون عني دون أن أملك شيئًا لي أو لهم؟

عشرات الأسئلة بلا إجابة، إلا أنني استرحت لدعاء كنت أقوله في الصلاة:

"اللهم احشرني مع من أحب في الدنيا وفي الآخرة" كما كنت أردد في سجودي " اللهم أمتني قبل من أحب واجعل في موتي سكينة لهم وبردًا وسلامًا عليهم".

وأنا في الجامعة ماتت خالتي علية. ماتت بعد أن طلبت أن تراني أكثر من مرة، ولم أستطع أن أذهب إليها في العاشر من رمضان لاعتقادي أنها مريضة بمرض عادي مثل البرد أو الكحة، لكنها كانت مريضة بالكبد.

ماتت فجأة، ووجدت نفسي في لحظة واحدة أمام كفنها يقول لي من حولي أن أرفعه معهم كي أضعه في النعش.

رفعته ووضعته وسرت به حتى صلينا عليها ثم وجدت نفسي مطالبًا بالنزول إلى القبر.

نزلت.

الغريب أنني لم أكن خائفًا رغم كل ما حكيته لكم عن الموت.

وضعناها برفق ثم كنت أول من خرج.

تكرر الموقف بعد وفاة (ستي) التي ماتت بعد جدي بنحو عام إلا أن هذا الأخير لم أحضر جنازته أو دفنته لأنهم لم يخبروني أساسًا بموته إلا بعد الدفن، وهو ما لم أسامحهم عليه حتى يومنا هذا.

بعد زواجي أصبحت حريصًا على نفسي من أجل زوجتي.

كنت أخاف عليها من أن تحمل لقب أرملة وهي بعد في

العشرينات من عمرها، وحين حدث لها إجهاض بعد حملها الأول اكتشفت أنني يمكن أن أفقد ابني أو ابنتي لأسباب غاية في التفاهة، لكن ظل يقيني وإيماني بالله -عز وجل- يحميني من الكثير من الأفكار التي قد تصل بي أحيانًا --لا قدر الله-- للإلحاد.

صرت أهيئ نفسي بين الحين والآخر لاستقبال نبأ موت عزيز لي، وكلهم يموتون قبل من أكره لسبب لا يعرفه أحد.

مرات عديدة فكرت في كتابة وصيتي لكنني لم أفعل ولا أعرف أيضًا السبب.

بقي الموت بالنسبة لي لغزًا لا حل له.

ولا زلت أتأمله في عجز.. ، وأنتظره.

محمد فتحي

من مواليد الشمعدان (1980)

تم فطامه على السفن أب، وكبر وترعرع في حي الشرابية قبل أن يكتشف أن كل بلاد الدنيا جميلة لكن أجمل من الشرابية لا.. لا ا لا لا لا لا لاااا

يعمل حالياً كمدرس مساعد بقسم الإعلام جامعة حلوان، وله العديد من الكتابات والتي صنفوها -رغماً عنه- تحت مسمى الكتابات الساخرة.

فاز بجائزة ساويرس الأولى في القصة القصيرة لا لشيء إلا لكي يغيظ الذين صنفوه ككاتب ساخر وبس.

تم تهزيقه على الطبعتين الأولى والثانية من الكتاب الذي بين

يديك الآن، على اعتبار أنه يكتب عن عائلته وتفاصيله الصغيرة وهو الذي لم يستأذن عائلته ولا تفاصيله الصغيرة، ولم يحصل على موافقة كتابية منهم ليكتب عنهم.

في سبيله للخلاص من العديد من الكوابيس وأهمها صدور هذه الطبعة التي بين يديك الآن.

"لماذا أكتب سيرتي؟

حين نكتب أدباً يقولون، هذه سيرة،

وحين نكتب السيرة يقولون هذا كذب وتزوير!".

مارجريت أتوود

الكتابة وردة روز في كتاب الحياة..
لا تذبل ابدا

بـنفس الطريقـة الـتي أضـع بهـا الـوردات في صـفحات الكتـب لأحتفظ بها ، تحتفظ الكتابة بكل هواجسي وأحزاني ورغبتي الخالصة في إختبار العالم واللعب كما تسع طاقتي .

أنا أحب الكتابة عما اعرف ، أحب الطريقـة الـتى تحـول بهـا الكتابة الواقع لخرافة جميلة ، لجنون يليـق بحيـاة رائعـه تجـئ مـرة واحدة ولا نستطيع أن نعيد المرور بها .

لا يمكننا أن نعـود أطفـال ، ولا نـستطع ان نـستدعي لمـسة اليـد الأولى من الحبيب الأول ، ولا خفقة صدر حدثت بسبب نظرة جرحـت القلب وانتهى .

لن نـستطيع ان نعـود لـسعادة المـرة الأولى الـتي سـقطنا فيهـا في البحر ونحن لا نعرف العوم ، وقاومنا لأجل إرادة الحياة داخلنا .

لن نقابل نسمة الهواء ذاتها التي صادفتنا عندما افلتنا يدنا لنحلق تاركين اقدامنا تحفظ توازن الدراجة ونحن نسبق اطفال آخرين.

لا نستطيع أن نحتفظ بطعم قطع الحلوى التي كافئتنا بها أمنا على حل مسألة رياضية صعبة ولا حضن جدة غادرت العالم ، لا نستطيع ان نصحح أخطاء فادحة ارتكبناها في حق من نحب .

وحدها الكتابة تتيح لنا التكفير ، وتفتح لنا صفحات بيضاء مع العالم وتمنحنا حروف وتربت على صدرونا وتبتسم بحنو قبل ان تهمس بسحر ودعة" أفعلوها مرة أخرى ".

نامت عليك حيطة – أهداني حكاياتي

أطبق علي يدي وسحبني لداخل ذكرياتي التي لا أزعم أنها مهمة أو بها حكمة أو خبرة.

لا شئ من ذلك هي فقط محاولة لتذوق الأحاسيس ذاتها ، والمرور على الأشياء الحلوة التي كانت .. هو العودة لنفس الأماكن التي تغيرت ، والأشخاص الذين رحلوا ، والبنت التي كنتها ولم أعد هي أبدا .

حكاياتي الساذجة ، ومشاعر مراهقتي ، وخجلي وارتباكي من

العالم .

أخطائي التي أتحسس نتوءاتها وأتمنى ان تتلاشى ، وأوجاعي التي كتبتها لتذبل وأتداوى .

العديد من الطبعات من هذا الكتاب أمر يدعو للبهجة والخجل في الوقت ذاته ، لأن كل كتاب غادر المكتبة وذهب مع قارئ هو كتاب محمل بأشياء محببة حميمة ، تدعو احيانا للبكاء أو الضحك . لكنها خاصة وقريبة مني .

رغبتي في مشاركة الآخرين بها كان بمثابة نزوة قاسية جزء مني تسرب للكتابة وبقى هناك عاريا ومكشوفا للآخرين.

عندما بدأت العمل في هذا الكتاب " ذكريات عن الماضي / الطفولة " شعرت بإرتباك شديد

انتبهت لمرة أولى اني لم اعد طفلة واني اشاهد حياتي من مكان ابعد .. بدت الطفولة بحيرة صافيه أطل عليها من فوق جبل اتسلقه كل يوم وأنا أظن اني ألعب .

وحدها الكتابة عن طفولتي أقنعتني أني لست هناك ، وان الجبل الذي اتسلقه هو العمر، وأن نهاية الرحلة ربما ستعود بي

لبحيرتي الهادئة حيث أتحول لذرات رماد ينثرها من احب في ذلك الماء ويجئ الصمت.

افتح يا مازنجر.. أنا معك..

أفكر الآن في حقيقة ما أنوي كتابته.

أبتسم وأنا أواجه مسألة أني لم أعد طفلة وأني في طور آخر يدفعني للكتابة عن الماضي.

كيف يبدو الأمر.. أظنه مرعبًا.

كنت طفلة هادئة تنتمي لعالم الدراويش.. برقبة مائلة لم أحصل على صور في ألبوم طفولتي إلا برقبة مائلة.

كنت متأملة.. هكذا تقول لي أمي، أمي التي كانت تحوطني بمخدات وتتركني على الأرض بالساعات، حتى تنتهي من كل أعمال البيت، وتعود لتجدني مكاني.

أذكر المكان الذي كان تضعني فيه أمي. كان في منتصف صالة بيتنا فوق السجادة المستديرة.

هناك فقدت أولى أسناني اللبنية.

وهناك كنت ألعب مع محمد وطارق لعبة سوزكي الذي يتسلق الجبل. كنت أجعلهم يطوفون حول السجادة المستديرة كأننا في رحلة صعود، وعندما نتعب من الصعود نجلس على الأرض وأفتح الحقيبة التي أحملها على ظهري لأخرج منها كور بلاستيكية صغيرة، كنت أعطيها لهم ونتظاهر جميعًا بأننا نأكل الأرز الياباني الكورة.

قضيت دهرًا طويلاً من طفولتي أتمنى الحصول على كرة أرز كتلك التي كان "سازوكي" في مسلسل الكارتون يأكلها.

المسلسل كان أول ما تفتح به القناة الثالثة برامجها في حوالي السادسة. أجلس أمام التليفزيون، ينتهي القرآن الكريم، ثم النشرة التي كان يقدمها نفس المذيع الذي عملت معه -عندما كنت أتدرب في أجازة الصيف أيام الكلية- كان وقتها يقدم برنامج عن المناطق الأثرية في مصر، وكانت تخرجه فتاة أربعينية لم يسبق لها الزواج، كنت أساعدها وأقضى وقتًا طويلاً في حجرة المونتاج، حيث تتجمد أطرافي ثم نخرج للأماكن المفتوحة في القلعة ومصر القديمة في عز أغسطس، ونسجل بالساعات حتى أصاب بضربة شمس.

كانت تقضي كل وقتها في العمل، حتى تعود بعد منتصف الليل لفراشها منهكة لا تفكر في شيء. لم أفهم مشاعرها وقتها لأني كنت لا

زلت شابة صغيرة في بداية حياتي العملية.

كنت أرقبها دون أن أفهم..

أذكر أني ذهبت للقناة في يوم، وكانت هناك حالة وفاة مخرج زميل لهم. كانوا جميعًا في حالة حزن، إلا هي فقد كانت منهارة لدرجة أن عينيها تورمت من كثرة البكاء.. وتركنا العمل وظللنا باقي اليوم نضع كمادات تفل الشاي على عينيها. أصابني ذلك بفضول وسألت مساعدتها إن كان المرحوم صديقًا مقربًا للمخرجة، لكنها قالت إنهم لم يكونوا أصدقاء وإنها لم تلقه أربع مرات على بعض. وختمت كلامها بأن هذه هي شخصية صاحبتنا، وتكررت الجملة الأخيرة أمامي كثيرًا.

وفهمت أنها حساسة وتبحث عن سبب لتخرج طاقة الوحدة والحزن داخلها.. فهمت كم تحتاج أي إمرأه لبيت وزوج لأن ذلك بطريقة او بأخرى يمنحها شيئًا من الصلابة والقدرة على مواجهة حزن الدنيا.

كنت أتابع هذا المذيع في فترات الراحة وإعداد الكادرات. كان هادئًا لا يشرب القهوة ولا الشاي وإنما الينسون، كنا نتبادل أطراف الحديث أحيانًا.. كنت أحب أن أخبره إنه كان علامة خير وبشارة في طفولتي، لأن ظهوره في النشرة معناه أن الكرتون سيبدأ قريبًا.

لكني أنهيت فترة التدريب وغادرت دون أن أخبره ذلك أبدًا.

كنت أفرح عندما تنتهي النشرة؛ لأن ذلك يعني مجيء الكرتون "سازوكي- والسنافر وافتح يا مازنجر.. أنا معك"

كل ذلك كنت أنتظره على القناة الثالثة، هناك سمعت صوت منير لأول مرة، فلم أعلم من أي عالم سحري نبع ذلك الصوت. لم أكن أفهم ما يقوله، أظنه كان تتر أحد برامج الأطفال، وأظنني كنت أواجه مشقة في ملاحقة التتر، لأني لم أكن أتعامل بشكل جيد مع مواعيد البرامج، وأظنني كنت أنتظر تلك النشوة واللذة التي يحققها لي سماع ذلك الصوت.. وكنت أتابع كالمسوسة القناة الثالثة ذات يوم ولم يذيعوا البرنامج، وإنما نقل التليفزيون صورًا لدخان وحريق وفهمت منه أن القناة تحترق.

أظنني لا زلت اشتم عبق تلك الايام، وأشعر بدهشة وسعادة وابتسامتي الطفلة لكل تلك المتع السحرية التي شاهدتها وأنا أجلس كالمجاذيب، أحدق في شاشة التليفزيون حيث تبدأ القناة الثالثة بثها الساعة السادسة مساء.

دكان الكتب السحري

عندما أنهيت المرحلة الابتدائية، بدأت أستمتع بالإجازات الصيفية، ولم يعد هناك بد من مواصلة الصيف بالشتاء للمذاكرة.

متى ظهر ذلك "الدكان" الصغير؟

في الأسبوع الأخير لامتحانات أولى إعدادي ظهر ذلك المكان. فجأة ظهر محل في ذلك البيت القديم المتهالك القريب من بيتنا، والذي أمُر عليه عند عودتي من المدرسة.. لم يكن هذا المحل موجودًا من قبل، أنا متيقنة من ذلك تمامًا، حتى البيت نفسه كان مهجورًا بلا سكان. نوافذه كلها متهدمة ومفتوحة وموحشة لا أحد هناك ولا أثر حتى لمدخل لذلك البيت. فقط باب المحل.

كيف عرفت أنه يبيع الكتب، وما الذي دفعني للداخل؟!

في الداخل، كان رجل عجوز يشبه كل رجل عجوز نراه في

طفولتنا.. نحيف.. أصلع يرتدي نضارة ولا ينظر نحونا مباشرة وإنما مشغول بأمور أخرى تبدو أهم –هناك في تلك الرقعة من الأرض، خلف البنك الخشبي الذي يجلس خلفه..

كنت أعطيه كل ما معي من نقود، وكان يعطيني كل ما أمامه من كتب ويوصيني أن أعود عندما أنتهي من القراءة. كان كل ما لديه ألغاز وسلسلة رجل المستحيل والمكتب رقم 19 وملف المستقبل.. لا شيء غير ذلك.

لم أحب غير سلسلة رجل المستحيل.

شيء ما بين منى وأدهم كان يجذبني ويحيرني ويعذبني. قرأت من العدد واحد حتى العدد 100، عندما تلاعب نبيل فاروق بمصير بطلتي "منى" ووضع اعتبارات لا تعنيني ليتزوج أدهم غيرها ولتروح هي في غيبوبة.

توقفت عن متابعه "رجل المستحيل" ومضيت سنوات أحاول التحكم في غضبي من سير الأحداث في الجزء المائة، ربما كان ذلك مؤشرًا رهيبًا لما ستكون عليه حياتي في السنوات التالية.

تبنيت لفترات طويلة جدًا نظرية الثبات، كنت ألتزم بعادات معينة لا أغيرها، كنت أهاب التغيير.. لأنه وجه للحياة لا أعرفه،

وأظن أني كنت قادرة على احتمال واستيعاب أي شيء إلا النهايات غير السعيدة لقصص الحب. كنت دومًا أعرف في نقطة بعيدة داخلي، أن الحب أقوى ما قد يراهن الإنسان لأجله.

وأظنني رغم كل ما جربت في هذه الدنيا، ورغم عشرات الإحباطات ومئات الانتصارات أصدق في حدسي ذلك.

خلقت كتب الجيب وتحديدًا رجل المستحيل، وما عثرت عليه في مكتبة أمي من ألغاز للمغامرين الخمسة، وكتب آرثر لوبين، والعشرات من مغامرات أجاثا كريستي، وتلك الكتب التي كانت تقرأها أمي في مراهقتها لي نوعًا من التفرد. كنت الطفلة الوحيدة في بيتنا التي تقرأ.. في الوقت الذي يتقاتل فيها أولاد خالي "وليد وهبة" وأولاد خالتي "عمرو وعماد" وإخوتي "محمد وطارق" على فورة للبينج بونج أو سباق السيارات والبطة التي تعبر الشارع في الأتاري أو يكادون يقتلون بعضهم على جراج أو سوق في لعبة بنك الحظ.

كنت وجدت أنا ضالتي في ذلك العالم الآخر.

لا عجب في أن "أليس" كانت بطلة طفولتي.

كنت ما إن أفتح كتابًا حتى أغيب عن العالم... بين صفحات الكتب جربت نشوة تلازمني إلى الآن. لا شيء يضاهيها ولا أحد

ينافسها.

كنت أقرأ في حصة المكتبة بالمدرسة قصص المكتبة الخضراء، وعلقت في ذهني "قصة القداحة العجيبة"، لأن جرس الحصة رن قبل ان أنهيها. وفي الأسابيع التالية لم تكن في المكتبة. بحثت عنها كثيرًا ولم أجدها ولم أعرف أبدًا ماذا حدث في نهايتها، وتمنيت أن أقتنى منها نسخة، وظللت سنوات طويلة كلما تصحبني أمي للمعرض نبحث وسط سلسلة المكتبة الخضراء عنها ولا نجدها.

إلى الآن اضبطني متلبسة -كلما رأيت مكتبة بها نسخ من المكتبة الخضراء- بالبحث وسطها عن " قصة القداحة العجيبة".

الإنسان أصله بوسة

أمي سيدة محافظة فعلاً. لا تتحدث في الجنس مع أحد.. تعيب على السيدات اللاتي يفعلن ذلك –تخبرني بحزم إن دي قلة أدب– أتذكر كلماتها هذه الآن، وألمح على وجهي شبح ابتسامة، فلم يعد الحديث في أمور غرف النوم ومزاج الناس في المضاجعة حديث سر ولا قلة أدب.. أصبح هوسًا عاديًا كإلقاء تحية الصباح والسؤال عن درجة حرارة الجو.

كل الأشياء التي كان من المحتمل أن نحكي معًا عنها باعتبارها أمي وباعتباري ابنتها لم نتحدث فيها. أظن أن خالتي –والدة عمرو– تولت هي كل الحكايات التي أوصتها أمي أن تكون مقتضبة.. من خالتي عرفت عن الزائر الشهري وعندما خطبت ارتبكت أمي جدًا.. لدرجة أني سمعتها تتحدث في الهاتف مع خالتي أيضًا وتسألها عمّا من المفروض أن تقوله لي، ولا أعرف ما الذي قالته لها خالتي على

السماعة الأخرى، لكني أذكر أنها نادتني وكانت وجنتيها شديدي الإحمرار وقالت لي بتلعثم "أني كبرت وأصبحت عروسة ثم سألتني مش انتي عارفه الحكاية دي".

ولم أعرف أي حكاية كانت تقصدها أمي.. لكني قدرت حالتها وهززت رأسي وابتسمت وصمتت وسكت. وانتهى موضوع الحكاية دي كما انتهت الخطبة وأرحنا واسترحنا.

عندما كنت في الثانوية العامة، كنت أعرف أن الطفل يأتي عندما يقبل الزوج زوجته، وأن شهر العسل هو الذهاب لمكان فيه "بحر" حيث يلعب العروسان بأقدامهما على الشاطيء ويجري أحدهم وراء الآخر، وفي الخلفية صوت أغنية لمدحت صالح أو إيمان البحر درويش.

ما الذي غيّر تلك الحقائق في عقلي؟

لم يفعل ذلك الفصل السابع في كتاب الأحياء عن تكاثر الكائنات الحية. كيف أصدق كتاب يتحدث عن أن النخلة لكي تمنحنا البلح تتزوج، وأن الثمار التي نأكلها هي في الأصل زهور، وأن الصرصور يتزوج بقرون التزاوج.. وأن الإنسان يمارس شيئًا معقدًا زاده المنهج تعقيدًا كي يحصل على الأطفال؟؟

أظـن أن مـا غيّـر تلـك الحقـائق في عقلـي، هـو مايكـل
دوجلاس وشارون ستون في الجزء الأول من فيلم "غريزة أساسية".

شبرا الوطن

شارع شبرا بتفاصيله التي تحملها ذاكرتي الصغيرة.

مـرة واحـدة بعيـدة.. ركبـت الـترام الأبـيض ورأيـت قـضبانه المستوية بالأرض.. أكلت ساندوتشات فول من محل لم يعد لـه وجـود، أمامه مدرسة للأولاد الكبار " الثانوي" فيما بعـد تخـرج فيهـا أخـوتي وأولاد خالتي.

وفيما بعد -أبعـد زمنيًـا- قمـت فيهـا بـأول تحقيـق صـحفي في حياتي، وأنا لم أزل طالبة بالفرقة الثانية بالكلية.

يومها تسلقت سور المدرسة الخلفي وحصلت على بعض الـصور، وأمطرني الأولاد بوابل من الحجارة والسباب. كنت خائفة قليلاً.

لكنها كانت مغامرة مختلفة..

من أيام تشبه تلك، ومن يقين أمـي بـالحروف.. عرفـت طريقـي

نحو الكتابة.

هكذا قالت لي في يوم كنت حزينة فيه أفكر في جدوى ما أكتب، وأتساءل هل اختيارتي في الحياة بشأن الكتابة صحيحة، أم أني في عالم من الأحلام لم يمس الأرض؟

ماذا قالت لي أمي لحظتها؟

أحاطت كتفي بيدها، ورجتني بعنف وحنان وقالت لي إن الإنسان قد يحتمل كل شيء إلا أن يعيش بلا إيمان.

قالت لي إني إذا كنت مؤمنة حقًا بما أريده سأناله، وإن الله اختار أن يوصل لنا رسالته في كلمات رسله.. وإن الكلمة هي أول الحضارة الإنسانية وإن الكلمات أقامت ممالك وهدمت غيرها وأقامت ثورات.

أي يقين كان في صوتها وعينها تملكني لحظتها ولم يفلتني أبدًا إلى الآن..

أمي لقد تحققت كل نبؤاتك لي وحدثت معجزات الكلمات.

شبرا..

من لا يعرف شبرا وحلواني مدبولي "آيس كريم مدبولي الشهير"، طعم الشيكولاتة الغامقة ذات مرارة أحبها، تختلط فيه

رائحة البن في المطحن المواجه لمحل الحلويات.. يختلط في ذاكرتي للأبد طعمهما معًا.

اختفت الآن الكثير من معالم شبرا. يهدموها ويبنوها من جديد كأنها خيال في لعبة باردة على شاشة الكمبيوتر.

سينما مسرة لم يعد لها وجود.. حكاياتك عنها يا أمي لم تعد ملموسة. سينما شبرا بالاس هل تحزنين مثلي لو أخبرتك أني مررت جوارها منذ أيام وجدت أرضًا مستوية.. مدرستك.. بيت كنت أحبه من الحجر الجيري الأبيض في دوران شبرا.. بيوت كثيرة صغيرة قديمة تحمل عبق زمن نعرفه لم تعد موجودة تهدمت، غادر أصحابها وماتت هي واقفة قبل أن تنهار من الحزن. يهدمون أربعة عقود من الزمان...

اثنان لأمي،

واثنان لذاكرتي أنا.

كان بيننا عشرون عامًا فقط.

وكنت كلما أكبر، تكبر هي معي ونتقارب. لم تفلح علاقتنا كأم وابنتها، لكنها نجحت تمامًا كأختين تربطهما صداقة حميمة بعد سنوات من الخلاف والحرب، كنا نخوض حربًا ضارية أبحث فيها عن

مشروع استقلال لا أملك أوراقه، وتقاوم هي انقلاب لن تسمح بحدوثه في مملكتها.

أعرف الآن -وأنا على أعتاب الثلاثين- أن كل ما كنت أناضل لأجله كان حماقات..، وأن كل شيء كنت أحاول دفع عجلات الزمن لحدوثه وأشعل حرائق في أوراق عالمي لأجله حدث من تلقاء نفسه.. لم يكن مبهجًا كما كنت أتمنى.

لا شيء من لمعة آبار الماء البعيدة، سوى انكسارات أشعة الشمس التي تصنع "سراب الصحراء".. لا شيء يا أمي سوى هزائم صغيرة تتسع كلما تقدمت في العمر.

الزمن ذلك القاتل

مدرستي الثانوية كانت في "دوران شبرا".

أول يوم أوصلني أبـي إليهـا، أكـدت عليـه أن يعـود ليأخـذني، لكنه ظن أني أمزح لأن المسافة بين المدرسة والبيت قريبة، لكني لم أكن أعـرف الـشوارع ولم أخـرج مـن بيتنـا وحـدي أبـدًا، ومدرسـتي الـتي تخرجت فيها والتي قضيت فيها كل السنوات الماضية كانت في الجانـب الآخر من شبرا، وكنت أذهب اليها مع أخوتي وأولاد خالتي.

بعد انتهاء اليوم الدراسي، وقفت علـى بـاب المدرسـة مـذعورة. تأخر أبي وغادر الجميع. حاولت أن أتذكر نمرة هـاتف بيتنـا الموجـود هناك منذ عشر سنوات، وفوجئت أني لا أحفظها.

ما الذي حدث؟ وكيف عدت للبيت؟

جلست على الرصيف أبكي!

وأرتجف من الغضب لأن أبي نسيني. ثم تحركت من أمام المدرسة ربما أعرف أي شارع جئنا منه في الصباح، لكني لم أفلح وكنت كلما تحركت شعرت بالتيه والضياع أكثر. كنت أفكر أني لن أعود للبيت مرة أخرى، وتساءلت ماذا سأفعل عندما يجيء الليل. وفكرت في العودة لباب المدرسة ربما جاء أبي للبحث عني.. لكني لم أعرف كيف أعود لهناك.

وفجأة سمعت من يناديني.

نظرت في اتجاه الصوت. كان مستر نظمي موجه الرياضيات في مدرستي القديمة، كان يقل ابنته من المدرسة. أخبرته أني تائهة، أظنني كنت أبكي وأضرب الأرض بقدمي وعلى وشك أن أروح في إغماءة.

ركبت معهم السيارة وعاد بي لبيتنا، وفي البيت انفجرت في البكاء وضحك أبي وأمي، وكتبت لي أمي رقم هاتفنا على أكلسير المدرسة. وأوصلني أبي في اليوم الثاني وطلب إلىّ ان أعود للبيت وحدي.. كنت عرفت بعض الطريق، وفي ميعاد العودة للبيت وقفت في الشارع لأوقف تاكسي فاكتشفت أني خائفة وأني محرجة جدًا أن أشير لتاكسي.

ومضيت في طريقي وبمرور الأيام تعلمت الطريق من المدرسة للبيت والعكس، لكني بقيت متوترة أشعر بالخوف طوال وجودي في

الشارع ولا أهدأ إلا عندما أعود للبيت.

أبتسم الآن عندما أدرك كم تغيرت، وكم من الساعات أقضيها الآن في الجريدة والشارع والمقهى.

لا يُخفي أبي تعجبه عندما يسأل أحد أمامي عن مكان فأخبره وصفته -يعلق دائمًا- هل هذه أنت؟.. ويسألني أين ذهبت البنت التي لا تعرف الشوارع وتخاف من عبور الطريق وتخجل أن تشير للتاكسي وتقع كلما مشت؟!!

أبتسم وأخبره مقولة يوسف إدريس العبقرية في ختام روايته (البيضاء)..

"إنه الزمن... ذلك القاتل"

جروبي- قلم التفاح البرتقالي

كلما مررت جوار "جروبي فرع عبد الخالق ثروت" أمضي لجواره ببطء ووله، أكاد أتمسح في زجاجه، أبتسم وأنا أتذكر كيف كانت تحكي لي إنها أخذنتني إلى هناك –أنا وهي وحدنا- عندما كنت في الثالثة من عمري وطلبت لي وحدي جاتوه وعصير.

تخبرني أنها في ذلك اليوم تعجلت أن أكبر وأصبح صديقتها،

تعجلت أن نجلس في مكان عام نحكي ونضحك.

أجلس كثيرا في جروبي طلعت حرب، لكني لم أدخل فرع ثروت أبدًا بعد تلك المرة، لأني أتمنى أن أعود لهناك مرة أخرى فقط، عندما يكون لديّ طفلة وتتم السنوات الثلاث. سأصحبها لهناك وسأحكي لها عنّا – أنا وأمي.

أظنني كنت طفلة هادئة انطوائية في تلك الفترة.

أظنني أيضًا لم أكن سعيدة.

كنت أحلم كثيرًا بالكوابيس، وأخاف من العفاريت الرمادية، لماذا كانت عفاريت طفولتي رمادية ذات بريق؟!

لأن أمي كانت تغطيني في الشتاء ببطانية ثقيلة رمادية، أظنها كانت من الصوف، لأني اكتسبت حساسيتي من الصوف بسببها.

كنت ولا زلت أكره الشتاء.

لأن ليله طويل.

ولأن نهاره بارد نستيقظ فيه مبكرًا ونذهب للمدرسة ونعود للمذاكرة. لم يكن مسموحًا لنا بالنوم بعد الضهر. كنا نذاكر وننام بعد مسلسل الثامنة.

كنت أنام بعد مسلسل "هو وهي" العرض الأول.

وعندما وصلت للصف الثالث الإبتدائي، مُنعنا من مشاهدة مسلسل الثامنة لأنه يضيع الوقت، وصرنا ننام عقب انتهاء أمي من مشاهدته.

كان البيت معسكرًا للمذاكرة، كانت أمي تربينا لنلتحق بالجيش.

كانت تحب أن يفعل المرء كل شيء في وقته؛ لذا فإنه عندما جاء وقت المرح لم أكن مستعدة له أبدًا.

بعد دخولي الجامعة، صبغ قوس قزح كل رتابة ورمادية الحياة من حولي. ذهبت لمصففة الشعر وقصصت شعري وغيرت لونه، وكان لدي الخيار لأن أرتدى الكعب العالي وأضع المكياج.

أبتسم وأنا أتذكر كيف كنت أخجل من أول قلم أحمر شفاه اشترته لي أمي —كان لونه برتقالي— أذكر أنه كان يدغدغني بعنف وإلى الآن لازالت ملامسة أقلام الشفاه تسبب لي نفس تلك الرعشة والخجل.

لم يكن سهلاً وقتها أن أتغير فجأة. فقط لأن مرحلة التعليم الأساسي انتهت وأنا الآن شابة صغيرة في عامها الجامعي الأول. لم يكن سهلاً أن أتعامل مع أمي التي كنت أخاف منها منذ عام واحد لأنها ستغضب من درجات امتحان الكيمياء الأخير. على أننا صديقتان ليس بيننا حواجز. كنا صديقتين متحابتين. أظن أن ذلك كان الأصل. لذا لم يكن صعبًا أن نعود ونلتقي بلهفة لقاء بعد طول تيه.

ما الذي أقوله الآن؟ لا أعرف..

أحاول أن أخاطب سيدة ورثت عنها كل تفاصيل شخصيتي..

وصنعت بيدها وتربيتها وأفكارها ما تبقى. أحاول أن أخاطب أمي التي غادرت عالمي دون أن أشبع منها ودون أن نتمم كل ما خططنا له معًا، ودون أن أعتذر لها عن كل غبائي وتصرفاتي الحمقاء، ودون أن أُقَبِّل يديها وقدميها على كل لحظة حملت فيها غضب داخلي منها.

عن أرجل الكذب الطويلة

كنت كاذبة سيئة.

وذلك لأني لم أتعلم الكذب إلا على كبر؛ فظللت أحمل أخطاءه التاريخية.

أول مرة كذبت فيها كنت في ثانية اعدادي.

تأخرت عن موعد العودة من المدرسة نصف ساعة كاملة، لأني ذهبت مع صديقة لي لنأكل آيس كريم من عند "مدبولي"،

كان بينه وبين المدرسة خمس دقائق على الرصيف الآخر مما يعني تعدية الطريق للوصول إليه..

لازلت أتذكر صوت دقات قلبي العالية جدًا، وأنا في طريقي للبيت لا أعرف كيف أبرر لأمي كل هذا التأخير. فكرت في حجج كثيرة، ونويت أن أكذب.. قبل وصولي البيت بدقائق كانت تمر أمامي أم تجر ابنها بيدها وتقول بلهجة قاسية وهي تقرقض له أذنه بيدها

"مش قلت لك الكذب ملوش رجلين". عرفت أنها إشارة من السماء.

ارتفع صوت دقات قلبي أكثر واحترت ما بين الحقيقة والكذب. وعندما دخلت من باب الشقة كان وجه أمي محتقنًا من الغضب والقلق، وقلت لها الكذبة التي اخترتها وهي أن سبب التأخير إن "ميس مرفت" تركت معي كشكول التحضير وجعلتني أنتظرها أمام باب المدرسة.

كنت أعرف أن أمي ستعرف طبعًا أني أكذب لكنها بدلاً من أن تعرف ابتسمت وقالت بعتاب: قلقت عليكي..

اعتذرت بهدوء وانسحبت من أمامها.

عندما دخلت حجرتي، وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسي وبينما كنت أخلع قميصي المدرسي الأبيض، كانت هناك بقعة آيس كريم شيكولاتة. لم أكن أعرف كيف سأتصرف فيها وكيف سأبررها لأمي، أخذت القميص وخرجت للصالة. وقفت أمام أمي واعترفت بكل شيء.

ولم تعاقبني.

لكنها عنفتني بهدوء على عبور الطريق، وأخذتني في حضنها بينما كنت أبكي بشدة وأنا أتعهد في قرارة نفسي ألا أستخدم أرجل الكذب الطويلة ثانية.

ولا أظنني بررت بعهدي مع نفسي أبدًا.

لأجله أحضرت شاكوشًا وكَسرت عتبة رخام جميلة

عندما جئت أنا للعالم حمل –عمرو– لي كل شر ومكائد الأطفال كانت أمي تضعني على كنبة في حجرة نـوم جـدتي، وتحـوطني بالمخدات. وجاء عمرو كطفل جميل هادىء يكبرني بعـام حـاملا في يـده طبقًا استلس صغير –كانت تضع لـه أمـه بـه بعـض البطـاطس المقليـة– ونظر نحوي، وبابتسامه ملائكية هبط بالطبق على رأسي.

وكطفلة صغيرة طبيعية صرخت بكل طاقتي.

كان يفكر كثيرًا في مسألة الطيران...

وقال لي بطفولة جميلة إننا سنقفز من فوق الـشباك، وبـدلاً مـن أن يمسك يدي ونقفز معًا، وقف خلفي وأعطاني ركلة قوية سقطت علـى أثرها من فوق الشباك..

وكُسرت يدي.

أمي هي من اختارت لعمرو اسمه؛ فقد كانت تذاع وقتها حلقات أبنائي الأعزاء شكرًا، وأغنية كان في واد اسمه الشاطر عمرو.

عمرو هو أول طفل حملته أمي وسهرت به واحتملت بكاءه وأحبته. اختارت أن تسهر به وهي تذاكر لامتحانات الثانوية العامة.

عندما كانت أمي تجهز بيتها حمل فراشها أول بقعة، عندما بلل لها عمرو السرير حتى قبل أن تنام هي عليه.

لأجله أحضرت شاكوشًا وكسرت عتبة رخام جميلة كانت على باب غرفة نومها، لأنها كانت تتسبب في وقوعه كلما مر عليها.

كنا نلعب الكرة في النادي.. أنا وهو وعماد.

وجاء عدد من الأولاد الأكبر منا وقرروا أن يحتلوا الجون الكبير الذي كنا نلعب فيه ضربات جزاء ليلعبوا، وقفنا معًا أمامهم وأذكر أنه عندما هجم ولد طويل على عمرو وضربه تسلقت ظهره كقطة متوحشة وعضضته فالتفت نحوي وضربني في بطني بشدة ووقعت على الأرض فأمسك عماد يده فأطاح به ذلك الديناصور الكبير. وعندما صرخ بي عمرو لأذهب لأنادي خالتي أو عمو رفضت وقلت في حدة —مش

هسيبكم- ولم أتركهم فعلاً وضربنا جميعًا علقة شديدة ونحن ندافع عن مرمى الكرة الذي نلعب فيه.

كنا نجمع أغطية المياة الغازية ونحتفظ بالمئات منها لنلعب لعبة من اختراعنا. كنا نشتري البلي الملون ونلعب الشطرنج بزهر الطاولة. ونقرأ فلاش.

كنت أعيش مع عمرو وعماد أولاد خالتي طوال ستة أشهر، سافرت فيها أمي لزيارة أبي بعد وفاة جدتي. أتذكر منها رائحة الدجاج المشوي الذي كان يشتريه لنا زوج خالتي، وأتذكر الماء بطعم الكلور الذي شربته كثيرًا في حمام السباحة بالنادي، وأتذكر المايوه الأزرق الذي أرسلته أمي لي.

وأتذكر الكتاكيت الصفراء الثلاثة التي كنا نربيها أنا وعمرو وعماد قبل أن يقرر عمرو في يوم أن يجعلها تستحم ويغرقها في جردل ماء، لا زلت أذكر الكتكوت الصغير وهو مبتل يرتعش وينتفض حتى الموت، بينما يفر عماد بالكتكوت الصغير الذي يملكه حتى تقابله القطة المشمشية وتخربشه في يده وتلتهم الكتكوت منه. بعدها بفترة قليلة غادرت هذه القطة ولم نرها مرة أخرى.

أتذكر تشابكنا بالأيدي كل يوم -خصوصًا أنا وعماد-، كان

يضربني كل يوم تقريبًا، ليس في تلك الفترة فقط ولكن منذ تعلم المشي، ورغم أنه يصغرني بعام إلا أنه كان يتمكن مني

ويمزق لي بيجامتي كل يوم. وفي اليوم التالي نتصالح ونلعب قبل أن ينشب بيننا خلاف جديد.

السيارة البيضاء فيات 131

– انزلوا العربية بتولع!

فيها كنا نتكوم فوق بعضنا، نحن وشنط المدرسة وحكاياتنا الصاخبة وصوتنا ونحن نردد في كورال فوضاوي أغنية – مابلاش نتكلم في الماضي لعمرو دياب– الحديثة وقتها.

كانت تذهب بنا للنادي وللرحلات.. فيها تعلمنا قراءة لافتات المحلات، وعد عواميد النور المضيئة في الليل.

فيها تلقينا خبر أن منى إبنة خالتي الكبرى أصبحت أم وأنجبت "عليّ"، ولأن اسم والده هو علاء الدين، أطلقنا نحن الأطفال عليه فترة طويلة من حياته الأولى "مصباح"، ثم دللنا كلمة مصباح فأصبح "مزموز".

على مدخل مدينة الأسكندرية بعد لحظات من قراءتنا لافتة أن

المدينة ترحب بنا، توقفت السيارة البيضاء الحبيبة، وقال لنا عمو بصوت مضطرب: انزلوا العربية بتولع.

وقفت العربات على الطريقين لتساعد في الإطفاء.

أكلت النار السيارة التي احتوت سنوات طويلة من حكاياتنا وضحكاتنا ودموعنا.

يعمل في دفن الموتى.. ويأكل الاطفال

عم قنديل.

هو عملاق طفولتي.

رجل ضخم طويل.. صوته جهوري.. يرتدي نظارة طبية وكوفية صوفية يغطي بها معظم وجهه في الشتاء ويستبدلها بكوفية من قماش أنعم في الصيف.

أتجنب النظر في وجهه إذا ما قابلته على سلم البيت.

أعرف أني لن أرى الكورة مرة أخرى إذا سقطت من على سور السطح ونزلت إلى الحديقة الخلفية في شقته. ينادي زوجته (أبلة سعاد)، تلك السيدة الصامتة العبوس ويطلب إليها بصوت مرتفع أن تحضر له سكين المطبخ.

دقائق ونسمع صوت انفجار الكرة.

ينفتح باب شقته المظلمة دائمًا كأن لا أحد يسكنها، ويرمي لنا -نحن الأطفال المذعورين الغاضبين- نصفي الكرة وقد تحولت لغطاء مطاطي للرأس.

يغلق الباب.

لم يكن يكتفي بقتل الكورة إذا ما سقطت في حديقته.. كان ينصب لنا الأفخاخ ليقبض علينا ونحن نجري فوق السطح.

كثيرًا ما تخيلت أني سمعت صوت زئيره في المساء.

كنت ألمحه في الصباح الباكر في الشتاء ونحن نستعد للذهاب للمدرسة. يغلق باب منزله المظلم دائمًا. يحمل في يده حقيبة صغيرة تبدو أكبر قليلاً من محفظة جدتي.

كنت أشعر أنه يعمل في عمل مريب -القتل- يبدو مناسبًا لتركيبته الجسمانية. كنت أفكر أنه يعمل في دفن الموتى، وأتساءل كيف يخبيء الجاروف في الحقيبة الصغيرة.

هكذا كنت أهابه لأنه يقتل الناس ويقذفهم في بحيرة هادئة كما يفعل عادل أدهم في أحد الأفلام العربية التي شكلت كوابيس

طفولتي.

عم قنديل يأكل الأطفال أيضًا.

عندما وصلت للمرحلة الثانوية جاء بخاطري أن أسأل أمي عن عمله، وقالت لي إنه موظف يبيع القماش والصوف في محل من محلات القطاع العام.

أنا كائن لا يحب الصوف.

لا أحب اسمه ولا ملمسه على بشرتي لأنه يلهبها.. كنت أظن أن معرفتي لعمل عم قنديل الحقيقي سيقضي على هلاوس الطفولة، لكن ذلك لم يحدث، بل ارتبطت عندي حساسيتي من الصوف بخوفي الطفولي منه..

خرج على المعاش.. صار يستيقظ مبكرًا كل يوم ويسحب الكرسي الخشب ويجلس على باب البيت من الخارج، يلقي تحية الصباح على الجميع ويشتري الخبز ويعود حاملاً القفص كإنسان الكهف الأول.

عم قنديل قرر أن يمارس نشاطًا تجاريًا.

استأجر محلاً في العمارة المقابلة للبيت بحيث لن يضطره العمل الجديد للانتقال من أمام البيت إلا سنتيمترات.

في اليوم التالي استيقظنا على واجهـة العمـارة ملونـة بالأخـضر والأبيض، ومرسوم على الحائط وواجهة المحل "قناديل بحر".

عندما سألت عن سر هـذه الرسـومات.. قـال لـي أطفـال العائلـة الذين لم يعودوا كذلك أنه رسمها ليكتب اسمه على واجهة المحـل دون أن يواجه الضرائب.

هنا فقط عرفت أن ذلك الرجل عملاق طفولتي كان ينتمي وبـشدة للفراعنة، وأنه يصنع تاريخًا خاصًا على جدران عالمي وواجهة العمارة

كل الذين أحبهم رحلوا

فلماذا لا أحب المبغضين،

فلربما رحلوا

وعاد الذين أحبهم....

بدر شاكر الشياب

(1)

لا أذكر من جدتي لأبي غير أني أشبهها في لون بشرتها، وبعض من ملامحها، وطريقة نزول السلالم. والحقيقة أني أهبط السلالم درجة درجة بطريقة توحي أني أخاف من السقوط بشكل طفولي. جدتي كانت تحب العنب رغم مرضها بالسكر–أظن أن العنب قتلها– هكذا يقول بعض مؤرخي عائلة أبي: "أكلت من كرتونة العنب حتى ارتفع السكر وماتت".

جدي لأبي كان من محافظة قنا. كان أسمر ووسيمًا وله ضحكة تشبه ضحكة أبي وعمي مصطفى. لو كنت كبيرة وقتها لوقعت في غرامه..

كان يحبها ويدللها

حزن يوم وفاتها كطفل وعندما أتمت الأربعين بيوم واحد.. دخل جدي إلى فراشه متعبًا ومرهقًا وحزينًا. ذهبت عمتي لتصنع له كوبًا من الليمون وعندما عادت كان قد صعد للقاء حبيبته جدتي.

(2)

جدتي لأمي.

لا أظن أني أحببت أحدًا كما أحببتها.

ما الذي تفعله الجدات في قاموس السحر ليبقى حتى آخر العمر مختلفًا مميزًا باقيًا؟

جدتي لأمي كانت بيضاء ممتلئة القوام. أحلى من القمر. في حضنها يمكنك أن تشتم فصول العام كلها. رائحة الحب لو كان له عبق.

من يدها نأكل أشهى ما قد تصنعه سيدة؛ كانت تصنع أصنافًا

كثيرة كل يوم في بيت العائلة.

كل يوم ستجد على مائدتها البط والفراخ والسمك واللحوم. كل يوم ستجد ما يكفي ويفيض عن حاجة أي ضيف قد يجيئها في أي وقت.

في أي وقت سيمر عابر سبيل ستطعمه جدتي.. وستطعمنا.. وستدخل البهجة والسرور على قلوب الحيارى والغاضبين والشاكين.

جدتي التي تشبه "الحلاج" لم تكن غنية لكنها كانت ساحرة مباركة. كل ما لديها هو كثير. وكل ما تمتد له يدها هو خصب فائض طيب.

في الصباح تكور لي أمي مريلة المدرسة الرمادية وحقيبتي الحمراء الصغيرة وترسلني للدور الأرضي عند جدتي، وتعود للنوم لأنها قضت الليل تشاهد الأفلام الأجنبية مع خالي على ذلك الاختراع –الفيديو.

عند جدتي أتناول إفطاري وأشرب كوب اللبن الصغير الذي اشترت منه ثلاثة أكواب، لي أنا وعمرو وعماد وأنا أتفرج على البخار الدافيء الجميل الذي يخرج من حمامها وصوت موقد الكيروسين ووشوشته التي أستعد الآن لدفع الكثير لسماعها من جديد. هناك على أعتاب باب الحمام الكبير تغلي الملابس البيضاء وأضع أنا يدي في أذني ثم أخرجها ليصبح صوت الوشيش متقطعًا دافئًا جميلاً.

على باب الحمام الكبير أقف وأتمنى أن تغني جدتي، يصبح يوم سعدي عندما تغني.. ما الذي يحمله صوتها؟!

الشجن والدفء والأنوثة. لم أكن أعرف معنى ذلك كله، لكنه كان يمسني ويبهجني.

عند جدتي تعيش القطة المشمشية التي يعذبها عمرو ويشد ذيلها ويضربها بالمخدة طوال النهار وهي تحاول الهرب منه قبل أن تخربشه بأظافرها وتفر.

في المخزن الصغير المتصل بالمطبخ تربي ديك رومي نسمع صوته وتمنعنا من الدخول حتى تذبحه، وتحكي لنا عن شراسته وعن ثورته إذا رأى أحدًا منا يرتدي لونًا أحمر.

هناك نشاهد البط والأوز ويخبرني عمرو أنه شاهد الوزة تتناول ذبابة. أمتنع عن أكل الوز طوال حياتي.. لكني أحب البط لأن صوته يعجبني ولأني شاهدت جدتي تضع له حبات الفول في فمه وهي تضعه بين فخذيها.

على فراشها نجلس نحن الصغار وننتظر انتهاءها من أعمال البيت لتجلس جوارنا وتعطينا من الحلوى التي تحفظها لأجلنا.

تحت فراشها نلعب ونستمتع برائحة النظافة وانتعاش برودة

الأرض. عند جدتي ومعها، زار الحب قلوبنا الصغيرة وبقى حتى عندما غادرت هي وغادر معها الدفء وصوت وشيش موقد الكيروسين والطيور والقطة المشمشية.

(3)

جدي بنى مصر.

جدي لأمي –محمد الحلواني- كان مريضًا بالقلب.. مدخنًا.. حاد الطبع.

يعرف أنه سيموت مبكرًا

وكان يضع أوراقه كلها في "صندوق خشبي" جميل مزين بالصدف، ويخرجها كثيرًا ليخبر جدتي عما يجب أن تفعله حال وفاته.. وعن الطريقة التي تتمكن بها من الحصول على المعاش وغير ذلك. وفي كل مرة تدعو له جدتي بطول العمر. ماتت جدتي بعدما أكملت أربعين عامًا، وبقى جدي متعافيًا قويًا حتى سن السادسة والسبعين.

كنت أحب جدي لأنه آخر من تبقى. يمنحني لقب أن أكون حفيدته، ولأني أحب ذكرياته عن عمله بالقوات المسلحة وعن حرب اليمن التي شارك بها وطقوسه في صنع "حلوى اللارنج" كل عام.

ولأني أحب لقبه –وتمنيت أن يكون لقبي أنا أيضًا–، وعندما أشاهد مسلسل بوابة الحلواني "أبتهج لأن جدي من بنى مصر" قبل أن يوضح لي أبي أن المسلسل لا يقصد جدي أنا. ويضيف: أن جدي كان يقف بصنية بسبوسة أمام مدخل مصر وأنه لم يبني فيها شيئًا.

كنت أحب جدي، لأنه يوم غادر سكنني الحزن الذي يعرف طريقه لقلوب البالغين. ذلك الذي يترك وصم أبدي لا يغادر.

(4)

كانت "سهير" عجوزًا في الخمسين من عمرها.. سمراء جدًا ورفيعة جدًا جدًا، لم يسبق لها الزواج، ترتدي فستان زفاف وتبدو بائسة.

كان جدي متساهلاً فى طلبه. كل ما كان يؤكد عليه ضرورة

أن تكون "وزة". لم أكن أعرف إذا ما كان يريد أن يتزوج سيدة أم وزة، لكني كنت أسمعه يكرر هذه الملحوظة في كل زيارة من تلك السيدة التي تشع قسماتها بالدهاء وابتسامتها بالدلع غير المبرر والتي عرفت فيما بعد أنها (الخاطبة).

في الأيام التالية كان يستعد للزواج، وأخبر أولاده في اليوم

كل صباح تشرب 2 كيلو لبن، وتأكل وحدها كل الطعام الذي تطهيه طوال اليوم، لأن جدي لم يكن يأكل كثيرًا في تلك الفترة، كان يأكل فاكهة وعصائر.

سوسو كانت تصبغ شعرها بالفحم، وكنا نتابعها كأطفال.

كنا نخاف منها -لكني عندما كبرت أدركت أنها ربما كانت تخاف منا أكثر مما نخاف نحن- كانت عصبية وعندما تتكلم بسرعة لا يفهمها أحد.

كنت أحبها.. ولا أعرف كيف حدث ذلك، رغم خلافاتها الكثيرة مع العائلة.. لكني أظنني أحببتها يوم وفاة أمها.

يومها ذهب معها الجميع وبقى الصغار في البيت.

وعندما عادت حكت لي أمي أنها بكت كثيرًا وأن باب السيارة التي كانت تستقلها انفتح فجأة وسقطت سوسو منه وكادت تموت. وبالفعل كان في وجهها سحجات كثيرة عالجها زوج خالتي. أظنني أحببتها منذ ذلك الوقت.

سوسو هي أول من صنع لي عجينة السكر عندما أصبحت شابة صغيرة.

بعد وفاة جدي اختارت أن تغادر وتعود لبيت أخيها في محافظة الاسماعيلية، وكان فرقًا شاسعًا بين ليلة مجيئها ويوم رحيلها.

ويومها عرفت أنه مهما طال اللقاء سيجيء يوم الوداع.

لم أخبر ذلك الرجل أبدًا أني أحبه...

قضيت أوقاتًا كثيرة من حياتي مع خالتي وزوجها وعمرو وعماد. لم أعرف ذلك إلا عندما شرعت في الكتابة عن الماضي.. لم أعرف كيف ارتبطت بعمرو رغم أننا كبرنا وغادرنا عالم الطفولة منذ سنوات.

لم أعرف حتى أني لا زلت أحبه كما كنت، وأن الألم والحزن وغياب الدنيا وقسوتها لم تؤثر في ما أحمله له.

بسبب هذا الكتاب.. عدت ألملم ما بعثره الزمن. صرت أحادثه على الهاتف كثيرًا.. أبدأ كلامي بـ(فاكر).. وأحكي له واقعة فيكملها لي فأعرف أنه يذكر. لماذا –عمرو– وحده دون سكان ذاكرة طفولتي كلهم؟ لا أعرف!

والد عمرو يعمل طبيبًا.

كل الأدوية والحقن والعمليات التي أجريتها في طفولتي هو من

قام بها. أنا شديدة الجبن فيما يتعلق بالأدوية والحقن.. كان يعاني مني ويعالجني في البيت إذا ما رفضت زيارة العيادة وأنا كذلك طوال الوقت.

هو من نقل لي أوراقي من حضانتي للمدرسة التي أكملنا فيها جميعًا حتى الإعداية. بخط يده تسلمت إقرار اللغة الألمانية في ملفي بعدما أنهيت الثانوية العامة. هو من تلقاني على يده عند ولادتي.

ولدت هادئة صامتة بلا بكاء.. استلزم ذلك أن يزيل عني غطائي الذي ولدت به "يعرف بلغة الطب (المشيمة)".

سحب المخاط من فمي وأنفي بأنبوب. ضربني على ظهري عدة ضربات، أخيرًا بدأت في التنفس والبكاء وجئت لهذا العام.

لم أخبر ذلك الرجل أبدًا أني أحبه.. لكني أظنه يعرف.. في الثانوية العامة عندما أصابتني الحصبة، أعطاني ثلاثًا وعشرين حقنة على مدى عشر أيام، ومنع كل أطفال البيت من دخول حجرتي "نوع من الحجر الصحي"

لأن أحدًا منهم لم يمرض بها من قبل.

الحقن تلك الملعونة. غرس آخر جرعتين في جسدي بعدما اضطر

أن يدخل خلفي تحت السرير حيث أمسك بي هو وأبي.

عندما ماتت أمي، وكنت أقرأ القرآن على رأسها ابتسمت فصرخت فيهم أطلبه. وعندما دخل عمو، وكنت أعرف أنه سينظر نحوي ويقول لي إنها لا زالت حية لكنه كان يبكي وكاد يسقط على باب البيت وهو يغادر. كنت أنظر في عينيه بيقين.. كنت أثق في أنه سيقول لي إنها حية.

لكنه خذلني هذ المرة وغادر.

كان اسمي "سمر"

طوال فترة وجودي في بطن أمي أقترح أبـي أن أكـون سمـر. كـان يتمنى أن أكون بنتًـا، وعنـدما ولـدت "قالـت خـالتي فـاتن إنـي ولـدت ببورنس وإن الطفل الذي يولد به يكون محظوظًا ويكون وشه حلو"

وضعت لي كحل في عيني.. وأخبرتني أنها لم ترَ "إبريق طفلـة" بها كل تلك النقود التي كانت في إبريقي، وطلبـت إلى أبـي أن يـسميني "نهى" لأنها كانت تتمنى أن تنجب بنتًـا وتـسميها" نهـى". كـان أبـي يحب خالتي تونة كما كنت أدللها أنا

وأسماني " نهى".

أنا أحب اسمي جدًا.. شكرًا يا خالتي.

تخبرني خالتي أن يوم السبوع علـق أبـي الأنـوار حـول البيـت كله، وأحضر فرقة للغناء كفرق الأفراح وأني ولدت كما تولد الأميرات.

ورثت خالتي فاتن عن جدتي صوتها الجميل، كانت تغني لي وهي تضفر شعري، وكنت أفرح عندما تجيء لزيارتنا..

ماتت بعدما أكملت أربعين عامًا.. غادرت العالم وأنا في الإعدادية. لم تصنع لي عجينة السكر كما وعدتني ولم تغني لي ليلة زفافي كما اتفقنا، لكنها تركت لي إيهاب أخي الأكبر وصديقي الذي أطمئن لأنه موجود في هذا العالم. إيهاب لا يحب القراءة ولا يصدق كثيرًا فيما أفعل، لكنه يدعمني كما لا يفعل أحد في هذا العالم.

الحب الحب.. الشوق الشوق

أفكر الآن هل أحببت يوما بحق!

كيف أقيم ذلك الحبيب؟ من الذي ستبقى صورته هنـاك في ذلـك الجانب من الذاكرة حيث لا مجال للنسيان؟

هل كان بطل سلسلة القراءة التي أدمنتها طوال سـنوات الـصيف في تعليمي المدرسي؟

هل كان ذلك الذي حاول أن يضايقني ذات مرة في الشارع؟

كنت يومها في اليوم الأخير من امتحانات الثانوية العامـة، لم أكـن أرتدي زي المدرسة. كنت أمشي مع زميلتين من زملاء المدرسة. وصـلت كـل منهما لبيتها قبلي وانتبهت وأنا أعبر الطريق أنه يسير خلفي.

كنت صغيرة ويزعجني جدًا ويربكني أن يعاكسني أحد، وحتـى الآن أمقت بشدة الشاب الذي يعاكس فتاة. أفكر إنه حتمًـا بـدون تربيـة.

وإنــه يجــور علــى جــزء مهــم في حقــي وحــريتي أن أمــشي بالشارع.. المهم أنه ظل يمشي خلفي ويهمس بكلمات –غير مهذبة علـى الاطلاق– كنت أفكر أن أتوقف وأستدير نحوه وأطلب إليه أن يتوقف عـن ذلك، لكني كنـت خائفـة خجلـة مرعوبـة. قبـل وصـولي البيـت بعـشرة دقائق، وجدت الحجارة البيضاء التي كانت تجهز لرصف أحد الـشوارع. كان شكلها مبهجًا باعثًا على التفاؤل. ابتسمت عندما لاحت لـي الفكـرة، وكأفلام الكرتون أضاءت الطوبة إلى جوار رأسـي وبالفعـل مـا إن وصـلت لها حتى انحيت على الأرض وتناولت ثلاثًـا واسـتدرت للخلـف وقذفتـه بواحدة. لم أقصد أن تصيبه في دماغه وتشجها ولم أقـصد أن أسمـع صـوت جمجمته وهي تصطدم بالحجر. كان الدم كثيفًا. أخـذ يجـري مـن أمـامي ونظرت في يدي فوجدت حجرين لم يزلا هناك، قذفته بهما بـسرعة قبـل أن يبتعد. متى انتبهت على صوت تصفيق على جانب الطريق وابتسامات من العابرين؟ وضعت وجهي في الأرض ومضيت حتى البيت.

اختفيت في حضن أمي وبكيت كما لم أبكِ من قبـل. حكيـت لهـا الحكاية عن طوبة واحدة واحتفظت لنفسي بباقي عدد الحجارة.

في المساء جاء مدرس اللغة العربية ليعاد الدرس وأخبر أمي إنه كان يركب الأوتوبيس ولمحني أقذف المارة بالحجـارة ممـا اضـطرني

لتعديل الحكاية والاعتراف بالعدد الحقيقي.

ضحكت أمي وهي تتساءل كيف أبدو شابه كبيرة هكذا وأقذف الناس بالطوب. وأتساءل أنا الآن كيف تعرف الحياة أني شابة كبيرة ولا تتوقف عن معاكستي بالحجارة كل يوم.

ربما جعلتني تربيتي وسط أولاد وفي مدرسة مشتركة لا أنجذب لهم باعتبارهم كائنات فضائية، كما يحدث مع الاختلاط المتأخر بين الأولاد والبنات. كنت أعاملهم عادي، لم يكونوا مصدر إبهار ولكن مصدر إلهام.

كان جميلاً أن أكتب أسماءهم على السبورة عندما تتركني مدرستي لأعتني بالفصل وتغادر، كنت أفرح عندما تضربهم لأنهم يستحقون.. كنت أقذفهم بالدوم في فناء المدرسة، خاصة هؤلاء الصغار كثيري البكاء. لكن عيب تربيتي وسط الأولاد أني شعرت أني منهم. لم أعرف أن أنجو بعالم متجانس من الفتيات. لم أصنع صداقات قوية وقديمة مع البنات.

تعلمت مصادقة بنات جنسي عندما كبرت وتخرجت في الكلية وبدا لي ذلك غريبًا الآن وأنا افكر فيه. عادية وجودي في عالم الأولاد. ارتدائي نفس ملابسهم واللعب معهم والمذاكرة والشقاوة. جعل وقوعي

في الحب أمرًا يحتاج لطقوس وتعاويذ كثيرًا ما أدونها لأختبر وجودها. تتغير بنود التعاويذ كثيرًا بمرور الوقت وباختلاف من أقابل وبزيادة خبرتي في الحياة.

لست متيقنة من شيء، لكن إيماني الوحيد أنه موجود في مكان ما في هذا العالم وأنه لم يزر الأرض التي أسكنها بعد..

من يتبقى فى ذاكرتي!

هل كان ذلك الذي أرسل لي أول خطاب غرامي مطوي بعناية في ورقة بيضاء غير مسطرة.. عطره بعطره الذي أمقته.

لم أحب أبدًا عطور الرجال حادة وقاسية مثلهم، هكذا أشعرها.

قرأت في هذا الخطاب كلمات أول مرة أعرفها. كنت أنتظر تنسيق دخولي الجامعة وقتها.. وبدا الخطاب رصينًا يقول كلامًا كبيرًا، ويحقق الانبهار المطلوب. كتب لي غاليتى.. وكتب شيئًا عن الدياجير. كلام كثير كثير، لم يتبق منه سوى

غاليتي ودياجير.

من سيبقى!

هل هو ذلك الرجل الذي جاء إلى كليتي في أول يوم دراسة. أول

يوم أنتظم فيه بالكلية. نقلت جدول المحاضرات وعرفت أن هناك معرضًا للكتب في رعابة الشباب. سألت عن مكانه وصعدت إليه وشعرت أني أمام كنز. كانت كتب مكتبة الأسرة ودار الشعب، وكنت وقتها أجهز مكتبتي الأولى وأحتاج أن أقرأ عن كل شيء وفي كل شيء.

كانت السنوات الأولى لمكتبة الأسرة جميلة وعامرة؛ لذا وقفت عند أول صف وأخذت كتابًا من كل الكتب المعروضة وعند كتاب "حديث الاربعاء" لطه حسين مددت يدي لأتناوله فسبقتني يده وناوله لي.

سألني عن الكتاب وشرحت له ما أعرفه عنه، ثم سألني عن كتاب آخر وأخبرته إنه رواية مترجمة لا أذكر اسمها الآن. وعندما ذهبت لأدفع ثمن الكتب التي اشتريتها -كان معي أكثر من ثلاثين كتابًا- ثم كنت أستعد لحملها تناولها هو ومضى أمامي. استوقفته وشكرته وطلبت إليه الكتب لكنه رفض أن يعطيها لي حتى يعرف اسمي. كان لحوحا كذبابة. قلت له إن اسمي نرمين. ناولني الكتب، وحاول أن يسألني عن مكان سكني وظل يحادثني وأنا أحاول أن أسبقه وأغادر الجامعة، وبالفعل استوقفت تاكسي وغادرت.

ما الذي حدث في البيت؟

وضعت الكتب بيني وبين أمي، وكنا نصنفها ونقلب بها حتى

طرق الباب. عندما فتحت وجدته أمامي. أغلقت باب الشقة ودخلت. طرق الباب مرة أخرى. دخلت حجرتي وفتحت أمي الباب، ودخل وطلب مقابلة أبي وجلس في الصالون. وجاء أبي وسمع منه حكايته وكان مهندسًا يبحث عن عروس ودخل الجامعة ورآني وأعجب بي، وأخرج كارنيه النقابة والبطاقة وكارت العمل وأنه سيكون سعيدًا لو وافق أبي عليه وإنه يطلب يد الآنسة نرمين التي هي أنا.

كان يحكي بلا توقف وأنا في حجرتي أرتجف وأشعر بالغضب من ذلك الكائن المجنون، وأخاف من رد فعل أبي الذي سيكون عنيفًا معه طبعًا، وأنه سيعلقني في مسمار في الحائط -لأنه لن يصدق حكاية أني لا أعرفه وأنها أول مرة أراه- استأذنه أبي ودخل حجرتي وسألني بكلمات مقتضبة: مين ده؟ أقسمت أني لا أعرفه وطبعًا بكيت. عاد أبي إليه ورد إليه أوراقه وأخبره أني صغيرة وأنه لن يزوجني حتى انتهي من دراستي وأعمل، وأنه يشكره أنه جاء من الباب لكنه لو عاد لكليتي مرة أخرى أو حاول أن يكلمني مرة ثانية فإنه سيتصرف معه بشكل لن يرضيه. وغادر عريس الغفلة.

ولم يتحدث أبي معي وخاصمني. كانت تلك هي الطريقة التي رباني بها. لم يضربني أبدًا.. لكنه كان دومًا عطوفًا مُحبًا، وعندما

أرتكب خطأ فادحًا يتجاهلني ويخاصمني.

وكان ذلك يحرق أعصابي ويؤذيني أشد الأذى، وقد فعل ذلك هذه المرة غير أن ما ضايقني لم يكن خصامه وإنما إحساسي أني ظُلمت. وبالفعل أخذت دبدوبتي مشمشة ونزلت عند خالتي، ورفضت أن أعود للبيت حتى يصالحني لأني لم أُخطيء في شيء.. ووصلنا لحل وسط بأن توسطت خالتي وأمي بيننا وتصالحنا. وأذكر أنه أخذني في حضنه وقبلني وكنت أنا أبكي بشدة.

وبمرور الوقت صرنا نتذكر هذه الحكاية ونضحك. وكنت كلما ضايقت أمي تضحك وتقول لي إنها كان من المفروض أن تزوجني لذلك المجنون الذي جاء ورائي بعد أول يوم في الجامعة.

من يتبقى في ذاكرتي!

من سيلح وجوده عليّ؟

من سيعيد ترتيب أولوياتي من جديد، ويواجه شعوري أني لن أرضخ لمن يعيد صياغة شفرات تكويني بتعالٍ وقسوة؟

هل ستكون أنت؟ هل تظن أن عبورك السريع للجانب الآمن من عالمي سيكفل لك البقاء في ذاكرتي الممسوحة أوتوماتيكيًا

بعد تعديلها بالأوبشن الأخير "المسح تلقائي"؟ هل ستكون أنت لأني أحييت عطرك.. أخيرًا وجدت عطرًا أحبه... أستدعيه بين أوراقك التي تمنحها لي.. هل ستكون أنت؟!

لا أعرف.

أنا كائن ينفض عن كاهله دومًا كل ذكريات الألم، لأنها تحتاج لطاقة نفسية لا أملكها لأنها تستهلك مساحات أحب أن أملأها بالورد والحب والشيكولاتة والبالونات الملونة.

أنا كائن ليس في قلبه موطن لرتق.. لكني أظنه لا زال قادرًا على الاحتمال، طالما في القلب نبض وأمل وحب.

يملؤني امتنانًا وانتماء شديدًا لعالمي.

أفكر في أن كل من زرع حولي حبًا، جنيته أنا حلمًا جميلاً، عشت وسطه وتربيت على رحيقه.

أول ما جذب اهتمامي في أعمال البيت، كان غسل الصحون.

كنت ولا زلت أحب هذا العمل جدًا وأعتبره أكثر الأعمال قربًا لقلبي. ليس فقط لأني أبتهج من ملمس الماء.. وصوته، ولكن لأن لي طقوسًا خاصة في غسل الصحون.. أحب أن أغسلها لأتزوج الأمير. ذلك لأني شاهدت مع أمي وخالي فيلمًا لـ"صوفيا لورين"، كانت هي من عامة الشعب أو من الغجر ربما، وكان هو وليًا للعهد.. عندما وقع في هواها سألها عن أكثر عمل تحب أن تقوم به، فقالت –غسل الصحون.

نظم الملك مسابقة لغسل الصحون بناء على طلب الأمير، وكان جائزة أكثر من ستغسل الصحون أن تتزوج الأمير.

كـل يـوم أغـسل فيـه الـصحون أتـذكر لقطـات الفـيلم كلها.. وأشعر بإحساس ملهم ورائع، إضافة لأني لم أكـن أعـرف شـئيًا من أعمال البيت غيره.

كنت أكتشف موهبتي في الغنـاء في تلـك اللحظـة أيـضًا، وكنـت أغني لكاظم الساهر قصائد طويلـة، كـان صـوتي رهيبًـا يـسبب إزعاجًـا كبيرًا لكن أحد من سكان بيت العائلة لم يكـن يجـرح مـشاعري. وحـده خالي الذي كـان يخـرج مـن شـقته المقابلـة لبيتنـا وينـادي علـى كـاظم ويخبره إنه يريد أن ينام قليلاً.

لم يـدللني أحـد كمـا دللـني ذلـك الرجـل.. ولم يـشجعني أحـد على الكتابة كمـا فعـل هـو. خـالي هـو أول مـن قـص علـيّ قـصة "أهـل الكهف.. في القصص القرآني" ومعه شاهدت النـسخ الأصـلية الأولى مـن فيلم "موسى" وسبارتكوس وعمر المختار.

كل يوم يجلس مع أمي مـن المـساء حتـى قـرب الفجـر يـشاهدان أفلامًا اجنبية.

بينهما شاهدت كلاسيكيات السينما الأمريكية.

بينهما أحببت سيدني بوتيه وكيرك دوجلاس وفيفيان لي.

معهما تابعت نوتس لاندج ودالاس.

لم يكن سني قد تعدي الخمس سنوات وأنا أرقب كل ذلك، وأستمع لجدالهما حول الأفلام والممثلين والحبكة والموسيقى التصويرية.

فتنتني السينما.

كانت أمي تحكي لي عن الحلقات الأولى من برنامج " نادي السينما" وعن الأفلام العظيمة العبقرية التي عرضها. كانت أمي تحب درية شرف الدين وتعدد في مزاياها لأنها تعد برنامجها بنفسها وتختار أفلامها وتحترم جمهورها. درية شرف الدين كانت في لجنة امتحاني للالتحاق بقسم الإعلام في الكلية، وعندما قابلتها بعد ذلك وكنت في الفرقة الثانية بالكلية أجرى حوارًا معها لمجلة الكلية قلت لها إن أمي تتابعها منذ بداية برنامجها وإنها تحبها. وحصلت على صور معها في مكتبها بالتليفزيون لا زلت أحتفظ بها إلى الآن.

خالي كان حنونًا، يعاملني بحب بالغ ورقة شديدة.

كان يحبني كأبنائه ويحزن لحزني ويشاطرني تفاصيل طفولتي ومراهقتي وشبابي. يحل لي مشاكلي، قد يبكي من أجلي إذا ما قست الحياة عليّ ويخبرني دومًا أني أستحق أحسن حاجة في الدنيا.

عندما مرضت أمي قضيت معها شهرين بالمستشفى.

كان يحادثني على الهاتف وأخفى عني تعبه هو الآخر، وعندما عدت مع أمي للبيت كان هو قد غادر للمستشفى، وعندما استقرت حالة أمي قليلاً ارتديت ملابسي لأزوره في المستشفى. على باب البيت قابلت أخي محمد. سألني: رايحة فين؟ قلت: لزيارة خالي. قال: إطلعي خالك مات واحنا رايحين له المستشفى دلوقت.

كيف صرخت وأي دموع تلك التي سالت!

خالي أنا لم أحتضنك منذ أسابيع، ولم تدللني، ولم أحك لك ولم أسمع منك.. ولم أقبلك على كتفك وتقبلني بين عيني. لن أذهب معك بعد الآن لصلاة التراويح، ولن نعلق معًا فانوس رمضان وزينته، ولن ننادي على المسحراتي لينادي على دبدوبتي مشمشة. خالي لن أحتمي بك الآن من حزن الدنيا، ولن أودعك، لن نشاهد مزيدًا من الأفلام ولن تسمع مني شعرًا أو قصصًا جديدة ولن تجري خلفي تحاول أن تمسكني وأنا أرمي قصاصات الورق على سلم البيت بعدما غسله ذلك الرجل، ولن تنزعج من صوت غنائي-أنا لن أغني أبدًا بعد رحيلك-.. لن تخرج في منتصف الليل تحمل وعاء به ماء وتسكبه عليّ وأنا أمارس ضوضائي المجنونة على باب شقتنا قرب الفجر بقليل وأنا انتظر عودة عمرو من

عمله بالصيدلية لنقتسم الحلوى التي اشتراها له ولي ولأخوتي وأخيه.

لن نفعل شيئًا مما تعودنا.

أسدلت الستارة على الفيلم الذي كنا نحب أن نشاهده معًا بلا توقف ولا انقطاع.

أنا طفلة قضت دهرًا من طفولتها تلوح للطائرات لأن أباها عائد في إحداها

لا أكره شيئًا في حياتي قدر الغربة.

أنا صاحبة شعارات كثيرة مفادها أن البقاء في بلادنا حتى وان كنا سنبيع مناديل أجمل ألف مرة من السفر.

سافر أبي أول مرة عندما أكملت شهرين، وظل أعوامًا كثيرة يحمل حقائب السفر ويغترب ويعود وننتظر. اختصرت الحياة كلها في غياب وعودة وانتظار، ورغم حرصه على التواجد كثيرًا، ورغم أن بيننا ألفًا من الحكايات ورغم كثافة حضوره في عالمي وحنانه..

إلا أني أعاني من فوبيا أبدية للغربة.

عندما أتممت عامين ونصف، كنا في زيارة لأبي في الدولة العربية التي كان يعمل بها، وكنت وقتها تعلمت ألا آكل شيئًا من

الأرض وأن أرمي أي زجاجة مفتوحة أو أي طعام غير مغلف. كان لدينا في السكن ثلاجة قدم صغيرة أعرف كيف أفتحها، وجدت فيها ثلاث زجاجات من اللبن.. مفتوحة بلا أغطية أخذتها ورميتها كلها، وعندما رآني أبي أمسك بكفي وضربني عليه عدة ضربات.

تحكي لي أمي أن ذلك كان في منتصف النهار.. وتحكي أيضًا أني ظللت أبكي لما بعد المغرب، وكنت غاضبة جدًا وأنها لترتاح قالت لي إننا سنجمع حقيبتنا ونعود لمصر، وتظاهرت بالفعل أنها تجمع ملابسنا فما كان مني إلا أن تركتها وجريت على أبي وقلت لها "لأ برضه بحبه".

ضمني في حضنه ولم يضربني أبدًا من يومها.

دائمًا ما أفكر أنني لو كنت تلقيت تربية أكثر حزمًا، ولو كنت ضربت ككل الأطفال، كنت صرت أحسن من ذلك. لكني غيرت رأيي عندما تعرفت إلى أصدقاء كان والدهم يعاملهم كمخدة في يد منجد ولا يختلفون كثيرًا عني وفهمت أن لا شئ يفرق وأن ما يفرض سطوته في النهاية هو جنونا الخاص.

أنا أحب أبي لأسباب غير التي تعلمناها في كتب المدرسة، تلك القائمة على النفعية. تكتب المُدَرسة على السبورة:

"أحـب أبـي لأنـه يـشتري لـي الحلـوى والملابـس الجديدة"

أحب أمي لأنها تطعمنا وتحمينا وتغلي شعرنا!

تلك الأسباب تحرض الطفل بطريق غير مباشـرة أن يتوقـف عـن حـب أبيـه وأمـه بمجـرد أن يـتمكن مـن الحـصول علـى ثمـن الحلـوى والملابس من مصدر غير أبيه، وبمجرد أن يعـرف كيـف يطهـو طعامـه ويغسل ملابسه.

ليس لذلك كنت أحب أبي...

أحبه لأنه رجل يحاول بمنتهى الصدق أن يمنع عني أكبر قـدر مـن الوجع والأذي في هذا العالم.. ولأنه رجل مختلف يستحق أن أحبه..

أبـي رجـل لم يجـرب الكـره في حياتـه.. لا يحمـل غـير المـشاعر الطيبة. الآن عندما صار عليّ أن أكون صاحبة مواقف في الحياة، أدركـت أن اختيار الجانب الأبيض على طول الخط أمر رهيب، وأن قليلاً مـن الغـضب والحقد والشر يفيد، لكنه لا يعرف -ربما لأنه يـرى الحيـاة كمـا تـستحق تمامًا- هل هو نوع من الصوفية التي لا أدركها أنا ولا غيري؟ لا أعرف.

تحذرني أمي طيلة سـنوات عمـري أن أحـذر غـضبه لأنـي لم أرَ وجهـه الآخر. بعد سنوات طويلة من معاملتي معه بدأت أشك في وجود

وجه آخر لذلك الرجل الهاديء الطيب، لكني كنت مخطئة بالطبع؛ يحتاج من هم مثله لأمور كارثية لترى منهم ذلك الوجه والحياة لا تخلو من مفاجآتها.

طوال سنوات صباي ومراهقتي لم أتمكن من مشاهدة "قبلة" على شاشة التليفزيون. لأن أبي كان يرسلني طوال الوقت لأحضر له كوب ماء من المطبخ، إذا ما جاء مشهد خارج بريء. متى طلب إليّ كوب من الماء، ابتسم وأخبره أني شاهدت هذا الفيلم من قبل على الكمبيوتر – نسخة اصلية–. ومتى كنت أشاهد فيلمًا عن مصاصي الدماء في حجرتي، – وطرق هو بابي ودخل– وكنت أعرف أن اللقطة القادمة تحمل وابلاً من الجنون فأوقف العرض وأنظر نحوه وأنا أبتسم وأقول له –تعالى نجيب كوباية ميه– ونخرج معًا من الحجرة ونحن نضحك. أبي كان دوما صديقي. كنا نلعب معًا.. وكنت أنام على حكايته الوحيدة التي لم تتغير.

كان يحكي لي حكاية رديئة عن صياد ذهب للصيد.. كانت مأساوية، مفادها أن سمكة قرش كبيرة عضته فقطعت له رجله، وأن أولاده ماتوا من الجوع، والكوخ احترق، بينما تطهي لهم الأم إناء ماء فاضي.

وصديق الأب الذي كان يحضر لهم الطعام صدمه أتومبيل وهو يعبر الطريق. كانت القصة رهيبة وكنت أتظاهر بالنوم حتى أتخلص

منها، لكني لم أجرؤ أبدًا أن أعترف له أني كنت أكره هذه الحكاية.

متى تذكرت هذه الحكاية –عندما كنت أقرأ مجموعة قصصية لصديقي محمد الفخراني– اسمها بنت ليل. في المجموعة قصة جميلة أخاذة عن سيدة تعمل في بيع الجبن بين القطارات وتعول زوجها المريض مرض عضال وابنتيها التؤأم. تصاب السيدة وتقطع قدمها تحت عربة قطار وتتوه إحدي التوأمين. مصائب كثيرة تحدث مكثفة وراء بعضها في تدفق رهيب مؤلم ومعبر.. يذكرني أن أعاير أبي بالحكاية التي كان يحكيها لي في طفولتي. لكني عندما أتحدث معه في ذلك يخبرني أن كتاباتي كلها هي في الأصل أفكار كانت في عقله هو.. وكانت تنسحب كل ليلة من عقله لتصل لي.

أفهم من ذلك كم هو مؤمن بما أفعل، وكم يحب ما أكتبه. وأصدقه جدًا وأحمد الله أن كل الحكايات هربت من مخه إليّ، وأن قصة الصياد بقت حبيسة وحدها في عقله وخيال طفولتي.

الساحرات

كان لي صديق كلما حملت زوجته مات طفله قبل الولادة أو بعدها مباشرة. تكرر ذلك الموقف ثلاث مرات.

في المرة الرابعة، أنجبت زوجته طفلة لكنها كانت ضعيفة جدًا ولديها مشكلة في التنفس. استلزم الأمر وضعها في حضَّانة.

كنت قلقة عليها جدًا.. وكنت أحكي لأمي وأنا مهمومة جدًا، لكنها طمأنتني بلغة العارف بالأمور.. وقالت لي إنها ستعيش وبابتسامتها سألتني: عارفه ليه؟

نظرت في عينيها أبحث عن الإجابة. ابتسمت وقالت لأنها بنت. الفتيات يولدن للدنيا محاربات.. متشبثات في الحياة.

صدقت أمي وعاشت طفلة صديقي، وأكملت هذه الأيام عامها الخامس.

علمتني الحياة –إن كنت قد تعلمت شيئًا حقًا– أن المرأة مخلوق شديد الذكاء والقوة والتحمل، كل ما عليها أن تختار لأي جانب تنحاز، وأظنني اخترت أن أنحاز لغريزتي وطبيعتي ورغبتي كأي أنثى – أن أبقى وأحارب وأنتصر.

كلفتني المعارك –الكثير– لكن عدم خوضها كان ليكبدني خسائر أكثر.

شرف المحاولة والدماء التي تغطي ملابسي، والجروح التي تصنع قطعًا عميقًا في قلبي، وحدها التي تجعل للنصر لذة ولتحقيق الأحلام طعمًا لا يعرفه من جاءت له الدنيا بسهولة. كل أحلامي كانت بعيدة غالية.

وأظن الآن أني حققت كل ما تمنيت، وكان كل ما عليّ أن آخذني لمكان هادىء جديد وأجلس معي وأعزمني على فنجان قهوة لنفكر في القادم.

مرة جديدة.. لحروب جديدة. يبدو الأمر كجدولة للأحلام القادمة. اخترنا –كازينو قصر النيل وجلست أنا ونفسي نحتفل ونرشف قهوة لها طعم النجاح.

نهى محمود

كاتبة مصرية

صحفية بجريدة الجمهورية

صدر لها :

رواية (الحكي فوق مكعبات الرخام)	**دار ميريت 2007**
رواية راكوشا	**دار ميريت 2009**
كتاب كراكيب نهى	**دار مزيد 2010**

المحتـويات

الميلاد.. أشياء تستحق أن تروى..... 5

فاكر طبعًا..... 15

أبي..... 30

والله زمان.. زمان والله..... 40

عم احمد بتاع زمان أهه!!..... 49

البنات..... 58

مدرسة الظاهر الثانوية.. إصلاح وتهذيب..... 72

وأموت..... 89

الكتابة وردة روز في كتاب الحياة.. لا تذبل ابدا..... 101

افتح يا مازنجر.. أنا معك..... 105

دكان الكتب السحري..... 109

الإنسان أصله بوسة..... 113

شبرا الوطن 116

الزمن ذلك القاتل 120

جروبي- قلم الشفاه البرتقالي 123

عن أرجل الكذب الطويلة 127

لأجله أحضرت شاكوشًا... وكسرت عتبة رخام جميلة. 129

السيارة البيضاء فيات 131..... 133

يعمل فى دفن الموتى ويأكل الأطفال..... 135

كل الذين رحلوا..... 139

لم أخبر ذلك الرجل أبدًا أني أحبه..... 147

كان اسمي سمر..... 150

الحب الحب... الشوق الشوق..... 152

في بيتنا قصر سينما..... 160

أنا طفلة قضت دهرًا من طفولتها

تلوح للطائرات لأن أباها عائد في إحداها..... 165

الساحرات..... 170